حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الرابعة عشرة / (يناير - فبراير) ٢٠١٩

70

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | January - February 2019

غريبٌ أنتَ

غريبٌ أنتَ مثلي في الحياةِ
تُغنِّي فوق أغصانٍ مَواتِ
فليس هناك من يَهفو لشدوٍ
ولكنْ لا تملَّ الأغنياتِ
وأعلِ الصوت في كل الروابي
وغرِّد للورود الزاهياتِ
ويومًا ما نداؤك سوف يسمو
ويأتي الأوفياء من الشتاتِ

***

٢ الأمُّ
فتح الله كولن

١١ مسؤولية الإنسان
د. محيي الدين عفيفي

٤٥ الألعاب الرقمية.. إلى أين؟
أحمد مصطفى الغر

الجوهرة

في افتتاحية "حراء" لهذا العدد يأخذنا الأستاذ فتح الله كولن إلى عالم "الأم"، ليحلّق بنا في سماء الوجدان ويترجم لنا مشاعره التي تجيش في صدره تجاه هذه "الكائنة السامية التي تعدل الأرواح في لطافتها، والملائكة في براءتها، والسماوات في عمقها"، بل إنها سلطان بدون تاج تحتضن الوجود وترعاه بالشفقة والوفاء والإخلاص.. ويختم ليقول مخاطبًا الأمّ: "إذا كان لكل شيء في عالم الوجود روحٌ وجوهرُ حياة، فينبغي أن تكوني أنت جوهر حياتنا".

و"عرفان يلماز" في مقاله "أنا القنفذ" يتحدث عن أسرار "القنفذ" وعجائب خلقه استنهاضًا للتفكر في بديع صنع الله تعالى وقدرته.

ويأتي بعد ذلك مقال "محيي الدين عفيفي" ليتناول "مسؤولية الإنسان"، ويصبّ أفكاره في صفحات حراء ليبعث شعور المسؤولية داخل الإنسان، وليبيّن أن هذا الأمر مشترك بين الناس أجمعين، ثم يؤكد على أن الله تعالى ربط تغيير الحال بإرادة الإنسان ونشاطه، وأن أية محاولة للتغيير في واقع الأمة لا بد وأن تبدأ بالإنسان وتركز على بنائه الفكري، لأنه المفتاح الحقيقي لأي تقدم ونمو.

وبعد المسؤولية نرى "محمد ياسين" يكتب مقالاً غاية في الإمتاع عن "النموذج المنشود" الذي مثّله بمشروع "الخدمة" الذي تحوّل بفعل ما نُفِث فيه من طاقة روحية وحركية وفكرية وثقافية، إلى واقع حركي متميز، وإلى مشروع انبعاث حضاري هدفه استنهاض الأمة.

وكأن مقال "منى سليمان" متمم وموضح فلسفة هذا النموذج المنشود، فهي تتحدث عن مناطق الصراع في شرق تركيا والجهود المثالية التي قدّمها أبناء "الخدمة" في هذه المناطق من إعمار، وتعليم، ورعاية صحية، ومساعدات إغاثية، واقتصادية، وثقافية، لتوطيد المحبة والسلام بين أبناء الوطن سلطة وشعبًا.. وكل ذلك تحت عنوان "جهود الخدمة في مناطق الصراع".

و"الشريف حاتم العوني" يقوم من خلال مقاله الموسوم بـ"لماذا أحبه؟" بتحليلٍ يدور حول حب الله سبحانه، ملخّصًا هذا الحب بعبارة وجيزة هي "من لا يعرف لا يحب".

أما "أسماء الحسيني" ففي مقالها الممتع "وسائل التواصل الاجتماعي سلاح ذو حدين"، تزيح الستار عن وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيراتها السلبية والإيجابية على الإنسان عامة وعلى المرأة خاصة، وتظلّ متفائلة بأن إيجابيات هذه الوسائل أكبر من سلبياتها بشرط العمل الجاد وتكوين الوعي لدى المرأة والمجتمع.

وفي حقل العلوم يأتي مقال "صفاء الدين محمد" ليتحدث عن "سيكولوجية السمنة"، وعن الخصائص النفسية والاجتماعية المتعلقة بالسمنة، مبينًا الأسباب والعلاج لهذا المرض. ويأتي مقال "الألعاب الرقمية.. إلى أين؟" لـ"أحمد مصطفى الغر" ليذكّرنا ببعض الألعاب الرقمية التي تعتمد على غسل دماغ المراهقين وإدخالهم في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي وشحنهم بالأفكار السلبية، ثم يدعونا إلى المبادرة بأخذ التدابير اللازمة لمنع وقوع أطفالنا في هذا الشباك القاتل. بالإضافة إلى مقال "العالم بعيون النحل" لـ"أيهان يلماز"، و"الوحدة مرض اجتماعي خطير" لـ"صالح القاضي".

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العدد من "حراء" بمقالاته، زادًا للفكر ونبعًا للروح والوجدان. والله وليّ التوفيق. ■

المحتويات

الأمُّ / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
جناية / حراء (ألوان وظلال)	٥
هذا أنا / سعود الصاعدي (شعر)	٦
أنا القنفذ / أ.د. عرفان يلماز (علوم)	٧
مسؤولية الإنسان / د. محيي الدين عفيفي (قضايا فكرية)	١١
النموذج المنشود / د. محمد ياسين (قضايا فكرية)	١٥
الرفق بالحيوان ضرورة حياتية وتربوية / أ.د. بركات محمد مراد (تربية)	١٩
لماذا أحبه؟ / د. الشريف حاتم العوني (قضايا فكرية)	٢٢
حمائم السلام / حراء (ألوان وظلال)	٢٥
وسائل التواصل الاجتماعي سلاح ذو حدين / أسماء الحسيني (علوم)	٢٦
جوهرة الهند / عبد الرشيد الوافي (تاريخ وحضارة)	٢٩
ليتني كنت أنينًا / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
سيكولوجية السمنة / صفاء الدين محمد (علوم)	٣٤
جهود الخدمة في مناطق الصراع / د. منى سليمان (قضايا فكرية)	٣٧
مستقبل التعليم / د. سعيد سهمي (تربية)	٤٢
حيرة / حراء (ألوان وظلال)	٤٤
الألعاب الرقمية.. إلى أين؟ / أحمد مصطفى الغر (علوم)	٤٥
اختبار القيم / محمد الكاس (تربية)	٤٩
العالم بعيون النحل / د. أيهان يلماز (علوم)	٥١
سفينة الخدمة / د. جمال بن فضل الحوشبي (شعر)	٥٥
"هذا والدي".. سيرة حب خالدة بين والد وولده / صبغة الله الهدوي (أدب)	٥٦
إذا سألك طفلك: أين الله؟ / نهى الفخراني (تربية)	٥٩
الوحدة مرض اجتماعي خطير / صالح القاضي (علوم)	٦٢

الأمّ

تُعَدّ الأمّ من الكائنات المحورية في عالمها؛ فكما الكعبةُ للكونِ، وكما مكةُ لسائر البلاد، وكما الدماغ للبنية الإنسانية.. كما أنّ كلّ ذلك بمثابة الروح والمعنى والجوهر والخريطة، فكذلك الأم هي القاعدة والعماد والأساس للأسرة، وأهمُّ مادة استخدمتْها القدرةُ الخالقة.. فكل ما في العُش، حَوْلَها يدور وبها يلتف وإليها يتحوّل، أما هي فتدور حول نفسها كالنجم القطبي وتقطع طريقها في مدارٍ فيما وراء السماوات.

أجل، إن الأمهات في الدنيا كائناتٌ ذات محور أخروي،

وأنصعُ دليلٍ على هذه الحقيقة هو ذلك التفاوت بين أدوارهن وكيفيةِ استخدامهن في الخلقة وبين ما يتلقّين من المكافأة وكذا عدمُ التناسب بين ما يتحملن من المعاناة وبين ما يقابَلن به من المعاملة.. ولا حاجة لإدراك هذا الأمر إلى إجراء بحث طويل، وأظن أنه يكفي لإدراكِ ذلك، لَفتةٌ بسيطة إلى ما يزرعنه طوال أعمارهن وما يحصدنه في المقابل، وإلى ما يقاسينه من المعاناة وما يلاقينه من مغبة ذلك.

إن وجوه الأمهات تشبه وجوه الحور العين في الجنة، ونظراتهن عميقة مثل نظرات الملائكة، ومشاعرهن صافية مثل مشاعر الروحانيين.. تكسوهن البهجة والمَلاحة والجاذبية مثل الورود النابتة على أرض تربتُها وماؤها وهواؤها من الجنة. إن الإنسان إذا استطاع أن يمعن النظر فيهن بدقة، لاحظ فيهن سحرًا يفوق حدود الجسمانية، ويفوقُ الدنيا وما فيها بل يفوقهن أنفُسَهن.

فأصحاب الأرواح الحساسة المنفتحة على المشاعر والأفكار، يرون في عالَمهن العميق العامرِ بالمشاعر والمتدفق بالشفقة، انعكاساتٍ لأحلى الرؤى المتغذيةِ بالأفكار الفردوسية، ويَصلون إلى مجموعة من الأذواق تفوق حدود التصور البَشري.

إننا نتنسم دائمًا في أجوائهن نسائمَ ذاتَ طابع من السكينة يختلف أسلوبها وأداؤها في النهار عن أساليبها في الليالي، ونحسُّ بأن مرحمةَ السماوات وشفقتَها وشِعرها تنسكب على قلوبنا، وبذلك يُخيَّل إلينا أن آفاقنا مُحاطةٌ بالملائكة والروحانيين.

مَن يدري، كم مرةٍ شاهَدْنا في جنح الليالي على وجوههن البنفسجية ذاتِ الأسرار، روحًا ومعنًى تَخَطَّيا جميع حدود الأزمنة والأمكنة، وتجلَّيا على ما نحن فيه من المكان.. وكم مرةٍ أحسسنا أنَّ رحمةً واسعة ضاربةً بجذورها في الأبدية، تتألق متداخلةً ببسماتهن وتأثراتهن.. وكم مرةٍ أردنا أن نُلقي بأنفسنا في أحضانهن لدواعٍ غامضة علينا ولكنها جاذبةٍ.

من يدري، كم مرة تَعرَّضْنا للانكسارات وأُصِبنا بالانهدامات والكدمات، ولكننا رمينا بأنفسنا في أحضانهن الساحرة التي هي أكثرُ دفئًا وحيويةً وصفاءً من أعشاش الطيور، وجعلَتْنا تَمْتَمتُهنَّ نرفرف بأجنحتنا متنقلين من لذة إلى أخرى نتشبع بالسكينة والاطمئنان.. وكلَّما أخذتنا الأمّهات في أحضانهن اعترتهن حالةٌ سِحريةٌ تحاكي حال أبطال الوفاء، فطفقنا نحسّ كأننا سنتخطى كل المصاعب والعقبات، وندخل في جوٍّ من مشاعر الاطمئنان ونجيش بمشاعر الأمن والأمان، ونمعن النظر فيما حولنا، ويَبدو مِن حالنا وكأننا نتحدى كل أحد، فتزيد معانقتنا لهن الاستمساك بهن.

إن الأمّ عميقة مثل السماوات، إنها تشبه كرة ملتفة من خيوط المشاعر تتلاقى وتلتئم وتجيش فيها مشاعرُ وأفكارٌ بعدد نجوم السماوات، وتفيض في داخلها إلى هنا وهنالك وكأنها حمم بركانية أو أنهار جوفية.

أجل، إنهن متوائمات مع ما قُدِّر لهن من السراء والضراء، ومتصالحات مع الأفراح والأتراح، وليس لهن مطامع، فلا تنكسر قلوبهن تجاه أولادهن إذا لم يُحقّقوا توقّعاتهن، وهن صروح تتبلور في طبائعهن الأخلاق الإلهية، حتى إنهن قد يتعرَّضن لمِحن يتصببنَ منها عَرَقًا مثلما يغرق الناس في عَرقهم إلى أعناقهم يوم القيامة، وقد يصبح عدم الوفاء من أولادهن مثلَ ريح شمالي قارس فيعصف بأرواحهن من كل الجوانب، ويجعلُهن يعشن أحلك حالات الغربة، ولكنهن مع ذلك كله، لا يستسلمن ولا ينهزمن أمام هذه الأمور.

تَحكي إحدى الأساطير أن رجلاً غضب على أمه فقتلها، وعندما راح يمزّق كبدها إذا بالشفرة تنحرف فتقطع يده، فلما تأوَّه القاتل من وجع الجرح سمع صراخ الأم ينادي: "يا فلذة كبدي!"، وأمسكتْ بيد ولدها المجروح.. كنت كلما استمعت إلى هذه الأسطورة منذ

أيتها الكائنة السامية التي تعدل الأرواح في لطافتها، والملائكةَ في براءتها، والسماواتِ في عمقها، أنت سلطان بدون تاج تصطادينا بما في يدك من شباك الشفقة والوفاء والإخلاص، وإذا كان لكل شيء في عالم الوجود روحٌ وجوهرُ حياةٍ، فينبغي أن تكوني أنت جوهر حياتنا.

حراء

hiragate.com

صغري، أحاول أن أستشف من خلال هذه القَطرة مدى عمق شفقة الأمهات، وبالأخص تلك الأمهات اللاتي يؤمنَّ بالأبدية والحياة الآخرة، وبالتالي يتمتعن بالأخروية والروحانية إلى جانب حياتهن البدنية والجسمانية.. فقلوبُ هؤلاء تتمتع بروابط قوية تجاه أولادهن في عالَم تلتقي فيه المادة والمعنى، ويتلاقى فيه الجسم مع الروح، بحيث تفوق حدود التصور، وتصبح العلاقاتُ الدنيوية الراسخة والمتينة واهيةً وعبارةً عن ظل زائل بالمقارنة معها، ولكن لن يكون من الميسور شرحُ هذا الأمر للذين لم يتذوقوا الإيمان وما فيه من اللذة اللانهائية.

أجل، يبدو أنه لن يكون من السهل أن نشرح كيف أن إخلاصهن يظل هكذا عميقًا ومستمرًّا لا يعتريه انقطاع، وأن قلوبهن تجيش دائمًا بالمحبة، وأن نظراتهن تنسكب في قلوبنا واعدة بالعلاقة والثقة، وأنهن يتدفقن بهذا المستوى من مشاعر الأبدية والماورائية رغم نشوئهن في وديان الفناء والزوال.

وتفكروا هنيهة، كم قضين فترات ومررن بمراحل تحضيرية طويلة لأجلنا، وكم اصطدمن بصعوبات عصيَّة على العبور، وكم تخطين مِن المَشاقّ، وكم صارَعْنَ مِن أحداث قاسية، وكم كابَدْنَ الهموم والأحزان ليلَ نهار، وكم تشبَّعن بالأحلام والرؤى وطفحن بها، وكم كُسرت قلوبُهن بحالات من اليأس وخيبة الأمل، وكم تجشَّمن شتى ألوان المصاعب والضيق، وكم تحطمن تحت وطأة أنواع من المحن، وكم تألمن بمختلف الوعكات وأطلقن الأنين، وكم بكينَ صارخات، وكم هدَّأنَ الصراخ والعويل، وكم مرة جِئْنَ بالشفقة، وكم مرة أحسسن بالحاجة إليها.. وباختصار، كم بذلن من الجهود والتضحيات من أجلنا.. كم وكم.. إلا أنّهنّ لم ينتظِرنَ منّا مقابلَ ذلك شيئًا.

فإذا كان هناك كائن يحتضنُنا في كل مرحلة من مراحل وجودنا، ويشمُّنا ويقبّلنا ويربّت علينا، ويُهدّئنا في تأثراتنا وانفعالاتنا ويقاسمنا مَضائقنا، ولا يأكل ولكن يُطعِمُنا، ولا يلبس ولكن يكسونا، ويَشعر بالجوع والشِّبَع مرتبطًا بجوعنا وشِبَعِنا، ويتحمل في سبيل سعادتنا من المشاقّ ما يضيق عنه الخيال ويفوق حدود طاقة البشر، ويدلنا على ما تنمو به أجسامنا وتتقوى به إراداتنا وتشحذ به أذهاننا ونتجه به إلى آفاق أخروية، وإذ يقوم بذلك كلِّه لا يتشوف إلى أي مقابل ظاهرٍ أو خفيّ؛ فذاك هو الأم.

إننا نقضي جزءًا مهمًّا من حياتنا في أحضانهن وأجوائهن التي هي أزهى لونًا من ريش الطواويس، وأشد تأثيرًا من العالم السحري للزهور، وأدفأ وأكثر حيوية ونشاطًا من أعشاش الطيور، وأشد حمايةً وأمنًا مِن آمَنِ الدفيئات الزجاجية.

أجل، إننا بهن عشنا فرحة الرعاية وانفعالاتها وبهرجتها وحسابها ونظامها وسبيلها، ومن خلالهن تعرفنا عليها وفيهن أحسسنا بها وذقناها، وبالأخص عندما يجتمع ضعفُنا مع وهنِنا ونقصِنا وسائرِ سلبيات الحياة فيُضَيّقُ علينا الخناق؛ فإننا نلوذ بهن ونحاول أن نتخطى عقبات الحياة التي تعترض طريقنا، وعندما نلوذ بهن فإنهن يحتضنَّنا بكل ما ينبعث من قلوبهن من الدفء، وينفخن في قلوبنا المضطربةِ الطافحة بالخفقان نفحاتٍ من الأمن والاطمئنان، وأظن أن كل أحد يصبح في هذه الحالة وكأنه يسمع من قلبه بقدر ما يلمس من نظراتهن وبسماتهن وقَسَمات وجوههن شعرًا صامتًا وسيلاً من المشاعر ونسماتٍ من الشفقة.

ونحن إذ قضينا معهن تلك الأيام والليالي العامرة بالمشاعر والأحلام عشنا في أجواءِ رؤًى سعيدةٍ.. وسمعنا في ساعات النهار الزرقاء من صدور الأمهات التي تحاكي الوتر الحساس أحلى نغمات الحياة، وقلنا في نشوة غامرة وبالمقدار الذي تستوعبه مشاعرنا: لعل هذه هي السعادة الحقيقة.

إن الأمَّ أهم أساس لحادثة الخلق، وأكثرُ أركانِ عالَم الإنسانيةِ بركةً، وهي نور أبصارنا وقرة أعيننا، وإنا لندين لها بمنتهى المدينونية ونرزح تحت هذه المسؤولية بأقصى ما يكون، وإننا لَننحني أمامها احترامًا، وهذا التقوُّسُ والانحناءُ في ظهورنا يجعلنا نشبه قبةَ السماء فيُكسبنا شرفًا وعلوًّا.

ولعل المنبع الذي يُجلب منه الماء المستخدم في تقسية معدنهن البَرَّاق الفولاذي وتصليدها، هي نافورات الجنة التي تَحُطُّ عليها وتطير منها الملائكة التي تحاكي الحمامات البيضاء، وإلا فهل كان لبريق أرواحهن أن

hiragate.com

يُبهِرَ أعينَنا إلى هذا الحد؟ وناهيك عن شعاعها فإن ظلالها تحرق الفراشات، وضياءها منبعٌ سِرّيٌّ يُنير قلوبنا المُظلمة، وإني بالفعل لا أزال أعيش في داخلي تأثير صدمة المشاعر التي تَداعَتْها تلك الماهية السامية، وإني أشعر بها في هذه الأيام أكثر من ذي قبل.

إن الأم هي بطلة للشفقة، وهي التي تستطيع أن تجمَع في آن واحد بين لطافة الروح والجراءةِ، فإذا نظرت إليها من منظور الشفقة والرأفة واللطف، وجدتها ليّنة مثل الريش وناعمة مثل الحرير، ولكنها أثناء الدفاع عن أولادها ورعايتهم، صلبة وقويّة كوحش كاسر.

إن يد الأم تعلو كلَّ ما تحت قبة السماء من الكائنات، وإن الطريق المؤدي إلى الجنة تمر من تحت قدميها، وقد أوتيتْ في كتاب الله مقامًا ساميًا وسلطنةً لا تُعدُّ أنواعُ السلطنة الأرضية بالمقارنة بها إلا تيجانًا بسيطة على رؤوس لا تليق بها، وبالفعل لا يمكن اعتبار تيجان الرؤوس التي لم تجد لها طريقًا تحت قدميها، ذاتَ قيمة دائمة.

أيتها الكائنة السامية والقيّمة التي تعدل الأرواح في لطافتها، والملائكةَ في براءتها، والسماواتِ في عمقها.. إن العوالم الماورائية تعطيكِ قيمة فوق القيم، وتستجيب لدلالكِ، وإن ألحان صيتكِ لَتُسمع حتى مِن الموقع الذي يقوم فيه الملائكة ويقعدون، كما أن أغنية حياتكِ تُدوّي في سفوح الجنان.. لقد قضيتِ حياتكِ وصنَّارةُ المشاعر مغروزة في كبدك، وقلادة جوهر الدين معلقة برقبتك، إننا جميعًا خدمك، أما أنت فسلطان بدون تاج تصطادينا بما في يدك من شباك الشفقة والوفاء والإخلاص، وإذا كان لكل شيء في عالم الوجود هذا روحٌ وجوهرُ حياةٍ على مستواه، فينبغي أن تكوني أنت جوهر حياتنا.

نسأل الله تعالى أن ينورك في صباح يوم القيامة بنور ذاته العلية، وأن يجعل مستقبلك فرحًا مسرورًا مثل الفرح برؤية جمال الله من فوق سفوح الفردوس في الجنة، وأن يبارك لك في وصالك. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية تحت عنوان: Anne، العدد:١٧٦ (سبتمبر ١٩٩٣). الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

جِناية

برأيكَ -أنتَ- إنّ المال غايةْ!
وأَولى من صغيرك بالرعايةْ!
إذا ما نابَهُ ضررٌ فلا بأسَ
ما دامتْ نقودكَ في حمايةْ!
ألا فاعْلمْ بأنكَ ذاتَ يومٍ
ستُسأل -أنتَ- عن تلك الجنايةْ!

***

سعود الصاعدي*

هذا أنا

ما لي أطاوع قلبي وهو يدفعني ... إلى حياض الردى والعقلُ ينهاني؟!
إنّي سئمت فقلبي كلما ضحكتْ ... لي الحياةُ بطيب العيش أبكاني!
هذا أنا أسكب الألحان من شفتَيَّ ... وليس يسعدني شدوي بألحاني
وأمتطي من أحاديث الدجى لغةً ... تطوف بي في فضاء العالم الثاني
يحاول القلب أن ينأى بصومعةٍ ... عن الحياة فقد أشقتْه أحزاني
والليل يرسم في عينيّ أخيلةً ... يشفّها من أحاديثي وأشجاني
كأنّ عينيّ في أجفانها شَرَكٌ ... والنوم طيرٌ رأى ما بين أجفاني
هذا أنا أُشعل الأبيات في لغتي ... نارٌ قبَسْتُ لها من نور إيماني
هذا أنا أنتقي للناس فاكهةً ... من سَلّةٍ ذات أشكالٍ وألوان
وأقطف الورد من أغصان دوحته ... فلا تَدلَّى بغير الورد أغصاني
كأنّني نسمةٌ في الفجر قد عبقت ... أو بسمةٌ قد حواها ثغرُ نِيسان
أو أنّني نبضةٌ في القلب قد خفقتْ ... يضمّها في الحنايا صدرُ إنسان
لكنّني في زمانٍ كلما زرعتْ ... أناملي أنكروا وردي وريحاني
هذا أنا قد كسوتُ الناس من حُلَلي ... لكنّ ثوبي من الأحزان أكفاني
وضقتُ ذرعًا بأرجائي التي وسعتْ ... مَن يملؤون بزرع الشوك ودياني
من أين أبدأ تمزيق الدُّجى؟ فأنا ... نورٌ كليلٌ وليلُ الهمّ أضواني
وكيف أزرع بَيْدائي وقد يبستْ ... كفّي من الغرس والرمضاءُ ميداني
إذا تخاصم أهل الحب في وطنٍ ... كتبتُ في دفتري نهجي وعنواني:
"بالشام أهلي وبغدادُ الهوى وأنا ... بالرقمتين، وبالفسطاط جيراني
وأينما ذُكر اسم الله في بلدٍ ... عددت ذاك الحمى من صلب أوطاني"(١)

(*) شاعر وأديب سعودي.

(١) البيتان الأخيران لأبي تمام.

أ.د. عرفان يلماز*

أنا القنفذ

١ انتبه أيها الإنسان! لا تلمسني وإلا وُخذتْ يدُك! نعم، كما توقعتَ أنا القنفذ؛ رحالة الحقول والحدائق والبساتين، والمتنقل بين الأشجار والأعشاب والأدغال في الليالي، بغية الحصول على رزقه أو إيجاد لقمة عيشه من خشاش الأرض.

لقد وُهبتُ لباسًا يحميني من المخاطر ويقيني من الحيوانات المفترسة. أجل، فبدلاً من شَعر أبدانكم أنتم البشر، عوَّضني ربي بجلدٍ تعتريه الأشواك، أو بعبارة أصحّ، إن العليم الذي أنبت في جلدكم شَعرًا ناعمًا لينًا، زودني بجينات تحتوي على أنظمة بيوكيميائية خاصة مشفّرة، تقوم بإنتاج أشواك غليظة وحادة في جلدي بدل الشعر الناعم لديكم،

يصل طول الواحدة منها إلى ٢-٣ سم، وعددها ٥,٠٠٠ شوكة تقريبًا. أما لون هذه الأشواك فيبدأ بالأسود أو البني من جهة الجذور وينتهي باللون الأبيض المائل إلى البيج عند الأطراف. فهي أشواك صلبة وخفيفة؛ لأنها مجوفة ومليئة بالهواء، ثم إنها مدعومة بحلقات دائرية من الداخل حتى تزداد متانة. أما جذور هذه الأشواك المجزّأة إلى صفائح رقيقة، فمزوَّدة بعُقَدٍ صغيرة تقلل تأثير الضغوط الخارجية وتمنع الأشواك من انغراسها في جسدي.

أدافع عن نفسي بمساعدة حُزَم العضلات الصغيرة في جذور أشواكي، إذ تقوم هذه العضلات بتنشيط الأشواك وتصويبها إلى جهات مختلفة لتشتبك ببعضها وتكوِّن حاجزًا مانعًا لا يمكن خرقه. أقوم بهذه العملية إذا شعرتُ بالخطر طبعًا.

لا تظنن عزيزي الإنسان أن أسراري كامنة في أشواكي فقط، بل كل جزء من جسمي أعجوبة من العجائب. إن السَّبْلة العَضَلية الكائنة تحت الجلد تغطي جسمي من جميع أطرافه مثل اللباس تمامًا، الأمر الذي يسهّل عليّ تكوير نفسي عند الشعور بالخطر؛ ألتقط ذنبي بفمي وأتكوّر لأصبح كرة شوكية مؤلمة، أيْ ترتبط أطراف السبلة العضلية في الجزء السفلي من البطن، بعضلة حمراء تسمى "الدُّوَيرية" (Orbicularis)، وبذلك أتحول إلى شكل يشبه الكيس المربوط من الفم، فأكون قد غطّيتُ المناطق الضعيفة من جسمي وحميتُ بطني العاري من الشوك داخل هذه الكرة. إنها طريقة خارقة في الدفاع عن النفس أليس كذلك؟

ثمة أمر يجب ذكره عزيزي الإنسان حتى لا تلومني فيما بعد؛ إني بمثابة مأوى للقراد والبراغيث والقمل من الطفيليات، والسبب في ذلك عدم قدرتي على تنظيف لباسي وحكّ المناطق بين أشواكي. ولعل ذلك ما يجعلني من أكثر الحيوانات الحاملة للطفيليات، بل إن كل واحد منّا يؤوي بين أشواكه نحو ١٠٠٠ قملة. لهذا السبب فإن فيّ مرضًا مُعديًا تسمُّونه "داء اللولبية النحيفة" المعروف بالطفيليات الداخلية المُعدية، فأنصحك أن تكون حذرًا عندما أتبوّل، لأن هذا الداء ينتقل عن طريق البول في غالب الأحيان.

إن اللعاب الرغوي الذي أفرزه من فمي مؤثر للغاية؛ حيث أمسح به أشواكي لأكسبها طعمًا تَنفر منه الحيوانات المفترسة والطفيليات التي تعيش على جلدي من جانب، ومن جانب آخر لأتواصل مع بنات جنسي وأحدد لها مكاني للتزاوج والتكاثر.

أفضل التجوّل والبحث عن الطعام في الليل، فعيوني ترى جيدًا في الظلام ولكن باللون الأبيض والأسود فقط. حاستَي الشم والسمع لدي قويتين للغاية، والشاهد هو الحجم الكبير للفص الشمي في دماغي. لقد زودني خالقي بعضو إضافي للشم يسمى "عضو جاكبسون"، وهو موجود كذلك عند بعض الثدييات، تستخدمه لتحديد موقع الفريسة أو تحديد مكان الزوج.

إن ذكورنا تتميز بالغدة الشمية. وإن إناثنا تخبر ذكورنا بحلول موسم التكاثر بالرائحة التي تفرزها وترسلها عن طريق جهازها التناسلي. أما ما ينتجه فمي من إفرازات فيتميز بدسامته ودُهنيته.

نتوزّع نحن القنافذ -كغيرنا من الحيوانات- إلى فصائل وأنواع.. فطويل الأذنين (Hemiechinus Auritus) يملك حاسة سمع أقوى من أنواعنا الأخرى؛ فالحد الأقصى للسمع عنده يبلغ ٤٥,٠٠٠ هيرتز، أيْ ضِعف سمعكم عند الترددات العالية، إذ أنتم البشر تسمعون الذبذبات التي تتراوح ما بين ١٨,٠٠٠-٢٠,٠٠٠ هيرتز فقط. وعن طريق خاصيتنا هذه، نستطيع تحديد مكان الدودة، وأمّ الأربع والأربعين، وغيرهما من اللافقاريات، بمجرد تحرُّكٍ بسيط منها، فنحفر مكانها بسرعة ثم نتناولها بعافية وهناء. أما الحد الأدنى للسمع لدينا، أي سماعنا الأصوات منخفضة الترددات، أضعف منكم أنتم البشر.

عدد الكروموزومات عندي يصل إلى ٤٨ كروموزومًا، أي ضعف عدد الكروموزومات عندكم. طبعًا هذا لم يَعد مهمًّا في عصرنا هذا، لأن المقارنة بين البساطة والروعة من حيث العدد لا يعني شيئًا بحد ذاته، بل المهمّ ماهية الجينات الموضوعة بكودات خاصة داخل هذه الكروموزومات. وقد تبين من عدد الكروموزومات ومن عمليات التهجين، أن شقيقاتي التي تعيش في شرق أوروبا وغربها، تنتسب إلى فصيلة

hiragate.com

hiragate.com

واحدة هي فصيلة القنافذ الأوروبية. علمًا بأن نوعنا المستوطن بلاد إنجلترا وكِريت أصغر من الذي يعيش في أوروبا. ثم إن الذي يعيش في الغرب، أصغر حجمًا وأبهت لونًا من الذي في الشرق.

أتغذى على الصراصير، والجراد، واليرقات، والخنافس، والديدان، والحلزون، وجميع أنواع الحشرات.. كما لا أتردد في أكل الفئران والثعابين الصغيرة، والسحالي، والكتاكيت أيضًا.. ولكن كبارنا في الحجم والسنّ، تقوم بأكل الحشرات الكبيرة على الأغلب.

الكثير من الحيوانات الصغيرة تغبطني على لباسي الشوكي الذي يحميني من المخاطر، ويدفع عني معظم الطيور الجارحة باستثناء البومة والغُرَيْر، إذ أُعتبَر بالنسبة لهما الغذاء المفضل! لذا أبذل قصارى جهدي على التخفّي عن أنظارهما، لأن البومة تملك مخالب حادة تتكون من مادة الكيراتين الصلب، تستخدمها في تمزيق جلدي وتقشيره من الشوك ثم التهام لحمي بسهولة، وكذلك الغرير يقدر على خرق حاجزي الشوكي بمخالبه الحادة والقوية ثم القضاء عليّ دون تعب. من ثم فإن عددنا في المناطق الخالية من الغرير والبوم، يبلغ ضعفَي عددنا في المناطق التي نعيش فيها مع هذين المخلوقين.

من إحدى ميزاتي الأيضية، خلودي إلى النوم في فصل الشتاء؛ أفضل النوم في أيام الشتاء القارسة التي يصعب فيها إيجاد الطعام؛ لأصون نفسي من التلف والموت، ولكن ثمة عدد كبير من أقراني -ويبلغ نصف المجموع تقريبًا- يموت خلال سباته الشتوي هذا، وذلك لعدم تناوله الغذاء الكافي في الصيف وعدم ادخاره الدهون اللازمة أثناء النوم. إن نومي الشتوي وثيقُ الصلة بالظروف المناخية؛ فأنواعنا التي تعيش في أفريقيا الشمالية -مثلاً- لا ترقد للنوم الشتوي أبدًا، لأن المناخ دافئ والغذاء موجود على الدوام في محيطها.

أما في أوروبا الجنوبية فننام أربعة أشهر في فصل الشتاء، بينما في أوروبا الوسطى نقضي ستة أشهر من حياتنا في النوم والرقود بسبب البرد وقلة الطعام.

قبل الخلود إلى النوم الشتوي يقوم جسمي في منطقة البطن وتحت الجلد بتخزين أنسجة دهون بيضاء،

إن القنفذ بمثابة مأوى للقراد والبراغيث والقمل من الطفيليات، وذلك لعدم قدرته على تنظيف لباسه وحكّ المناطق بين أشواكه. وذلك ما يجعله من أكثر الحيوانات الحاملة للطفيليات، بل كل واحد من القنافذ يؤوي بين أشواكه نحو ألف قملة.

ويقوم في منطقة الصدْر والحلْق وتحت الإبط وفي منطقة العمود الفقري بتخزين أنسجة دهون بنيّة، وعملية التخزين هذه تبدأ في أواخر الصيف. إن هذين الدهنين يختلفان عن بعضهما البعض؛ فالدهن الأبيض يؤدي دور العازل الذي يسيطر على التوصيل الحراري من خلال الجلد عند الثدييات، أما الدهن البني فيُخزَّن عند أنواعنا التي تتهيأ للنوم الشتوي فقط، لتستخدمه كمنظم حراري عند الاستيقاظ أو القيام المفاجئ.

أستيقظ أثناء نومي الشتوي مرة أو مرتين في الأسبوع، لأطرح الفضلات السامة التي تراكمت في جسمي، لأني أموت إذا لم أقم بهذه العملية وأطرح الكمية السامة التي نتجتْ كفضلات أيض من الدهون المحروقة في جسمي، وحالتي هذه تشبه مريضكم أنتم البشر الذي تُغسَل كلاه بين الحين والآخر ليبقى صحيحًا معافى لديكم.

أمر مهم آخر يجب لفت نظرك إليه عزيزي الإنسان، وهو طريقة الحفاظ على الدهون خلال بياتي الشتوي

hiragate.com

إن السَّبْلة العَضَلية الكائنة تحت الجلد تغطي جسم القنفذ من جميع أطرافه، الأمر الذي يسهّل عليه تكوير نفسه عند الشعور بالخطر؛ حيث يلتقط ذنبه بفمه ويتكوّر ليصبح كرة شوكية مؤلمة.

واستخدامها بشكل اقتصادي، فمن أجل ذلك تنخفض حرارة جسمي تلقائيًّا من ٣٥ إلى ١٥-٢٠ درجة، وتنخفض نبضات قلبي من ٢٥٠ إلى ١٠ خفقة في الدقيقة الواحدة، وكذلك تقل سرعة تنفّسي، وأحيانًا أتوقف عن التنفس ساعتين تقريبًا، واستنادًا على كل ذلك تُخفَّض سرعة العملية الأيضية في جسمي إلى ١٠٠ ضعف حسب الظروف البيئية المحيطة بي.

هذا ومن أجل الخلود إلى النوم الشتوي، تقوم الهرمونات بدور مفتاحي؛ فبسبب قِصر النهار وطول الليل في موسم الشتاء، يرتفع مستوى هرمون الميلاتونين الذي يفرزه الكردوس في دماغي، وهذا يؤدي إلى استخراج هرمون التستوستيرون من خصيتي لينخفض الدافع الجنسي لدي، ونتيجة انخفاض هرمون التستوستيرون في دمي يحصل استرخاء عندي وينتابني النعاس لأستغرق في نوم وسبات عميقين. وعندما يطلع الضوء وترتفع درجة الحرارة في فصل الربيع، ينخفض مستوى هرمون الميلاتونين الذي يفرزه الكردوس في دماغي، ويزداد هذه المرة هرمون التستوستيرون من الخصية فأستيقظ من النوم وينشط جسمي من جديد. أما طريقة النوم عند إناثنا فتنضبط من خلال الحالة المناخية بدلاً من ارتفاع مستوى الهرمون كما عند ذكورنا، علمًا بأن ذكورنا تستيقظ من سباتها الشتوي قبل إناثنا بثلاثة أو أربعة أسابيع تقريبًا.

تلد إناثنا ما بين ٤-٥ من الصغار بعد فترة حمل تبلغ ٣٥ يومًا، وقد يصل وزن الصغير عند ولادته ١٠-٢٥ غرامًا. خلال الولادة هذه تتجلى صفة الرحمة والشفقة الإلهية بوضوع؛ إذ يغطّى جسم الصغير بأشواك مرنة وناعمة، ومن أجل حماية الأم أثناء الولادة تغطى هذه الأشواك بجلد منتفخ مملوء بالسوائل يختفي بعد الولادة، وتظهر الأشواك بعد ٢٤ ساعة من الإنجاب. وعند إكمال الصغير الثلاثة أسابيع من عمره يفتح عينيه، وتزداد كثافة الأشواك وحدّتها على ظهره ويصبح لونها داكنًا. وخلال هذه المدة يتعلم الصغير -بتوجيه إلهي- عملية التكوُّر وحماية نفسه من المخاطر. كما تسقط بعد الأسبوع الثالث أسنانه اللبنية وتنبت الأسنان الدائمة، وبالتالي تنقطع الصغار عن حليب الأم عندما تبلغ ستة أسابيع، وبعد هذه المرحلة تسعى إلى إيجاد غذائها بنفسها، وتقوم بتخزين الدهون في جسمها بكثافة، وتبحث عن مأوى تعيش فيه أيضًا، وكل ذلك استعدادًا للشتاء القادم. وعندما يفتح عينيه للربيع، يكون الصغير قد بلغ وأصبح مستعدًّا للزواج ولبناء بيت جديد له.

نحن القنافذ لسنا متعوّدين على النوم مع بعضنا البعض، ثم إن لنا بيوتًا شتوية وصيفية لا نتشاركها مع أحد مهما كان الأمر. كما أننا لا نسعى إلى احتكار الأراضي لأنفسنا فقط كغيرنا من الثدييات، ولا نتحارب فيما بيننا من أجل لقمة العيش. كلنا يتجول بحرية تامة ويأكل ما يجده من رزق الله. أما المساحة التي نتجول فيها للتغذي حول مساكننا فتبلغ ١٠٠ دونم على الأقل، علمًا بأننا نستريح في النهار ونسعى إلى لقمة العيش في الليل.

أعتقد أن هذا القدْر من الحديث يكفي أيها الحبيب.. لقد غابت الشمس وبدأ الليل يخيم على كل مكان.. لا تؤاخذني إذا قلتُ لك بدأتْ عصافير بطني تَصيح من الجوع.. أنا مضطر إلى الخروج لأجد ما قسَمه لي ربي من حشرات، وأدّخر ما يعينني على البقاء في الشتاء القادم من الدهون. تأمل جيدًا فيما قصصتُه عليك، واسعى إلى بناء هذه الأرض بلبنات الحب والرحمة حتى تسعد جميع المخلوقات.. ألقاكَ لاحقًا.. تصبح على خير. ■

(*) كاتب وأكاديمي تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiragate.com

د. محيي الدين عفيفي*

إذا أردت لعناية الله أن تستمر بالهطول عليك في نجاحاتك، فتخلّ عن ادعاء الفضل لذاتك، اِعمل على محو "الأنا"، وانسِب الفضل إلى صاحب الفضل، وتواضع أمام الله.

الموازين

مسؤولية الإنسان

ناط الإسلام بكل فرد من أفراده مسؤولية وتبعة نحو نفسه وأهله وأمته، وعلى قدر منزلة الشخص وما وُكل إليه من مهام تكون مسؤوليته. وإن فقه المسؤولية ينبع من كون الإنسان صاحب رسالة في هذه الحياة، ولذا فهو مسؤول عن جميع أقواله وأعماله، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(الصافات:٢٤)، فكل إنسان مسؤول عن أعماله أمام الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر:٩٢-٩٣).

وبيّن رسول الله ﷺ تنوع وشمول المسؤولية في المجتمع، وعدم اقتصارها على شخص دون آخر أو جهة دون أخرى؛ لأن هذا الأمر مشترك بين الناس، ففي الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ

وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعيةٌ على بيتِ بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته" (رواه البخاري).

قال الإمام ابن حجر العسقلاني: "قال الطيبي في هذا الحديث: إن الراعي ليس مطلوبًا لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي ألاّ يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه".. "وقال: دخل في هذا العموم، المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلاً ونطقًا واعتقادًا، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته"[1]؛ ويُفهم من هذا الحديث أن المسلم مسؤول مسؤولية عينية عن مصلحة المسلمين في دوائر قد تتسع وقد تضيق بحسب الموقع الذي يكون فيه.

إن استشعار المسؤولية مأمور به في الإسلام؛ ليعمل الإنسان قدر طاقته للنهوض بتبعات ما أُلقي على عاتقه، ويحذر التهرب من مسؤولياته ليُلقى باللائمة والتبعة على غيره. إن القيام بالواجبات والمهام مسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه؛ هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بتخصصه، وذاك بماله أو وجاهته، ودائرة كل راع تختلف في السعة والضيق حسب وضع الراعي ومكانه الذي يتبوأه.

والرعاية التي يفرضها الإسلام على الراعي في دائرة الأسرة، ليست رعاية الإنفاق وتدبير الأمر فقط عمن يرعاهم الراعي في أسرته، بل مع ذلك رعاية التوجيه لهؤلاء، والملاحظة الدقيقة المستمرة لسلوكهم. والإسلام إذ يوصي بقيام كل راع بأمر رعيته وبالتعاون في هذه الرعاية، يقر أيضًا المسؤولية الشخصية والفردية على كل راع؛ ليؤكد أمر القيام بهذه الرعاية وبالتعاون فيها، وهذه المسؤولية الشخصية تعطينا "أن الإسلام يطلب من المؤمنين به، أن يكون كل واحد منهم بَنّاء في أمر نفسه، وفي أمر أسرته، وفي أمر مجتمعه"[2].

واقع الأمة وغياب المسؤولية

تحولت الأمة إلى طوائف ومجموعات تتمرس خلف أفكارٍ وآراء تنم -أحيانًا- عن عصبية وتشدد لدى بعض الفئات التي تكتفي بقراءة ذاتها بمنأى عن عالمها، مع التعصب لرؤيتها ونظرتها واعتبار تدينها دينًا مقدسًا لا يمكن إعادة النظر فيه، وقد حذر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع في هذا المستنقع، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(الروم:٣١-٣٢). إن آيات القرآن صريحة في بيان دور الإنسان وإعطائه الحرية، ورُتّبت على هذه الحرية مسؤولية الثواب والعقاب، فلا مسؤولية بلا حرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

إن الله تعالى ربط تغيير الحال بإرادة الإنسان ونشاطه، ولذا فإن أيَّة محاولة للتغيير في واقع الأمة ،لا بد وأن تبدأ بالإنسان وتركز على بنائه الفكري؛ لأننا بحاجة إلى الاهتمام بعقل الإنسان وفكره، فهو المفتاح الحقيقي لأي تقدم، وهذا ما جعل مالك بن نبي يقول: "إن الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ تاريخيًّا- إلا بالعقيدة الدينية -هدايات وبلاغات الوحي- فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعةً ومنهاجًا، وهي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدّر للإنسان ألا تُشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدًا عن حقبته، إذ حينما يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تشكل له مركز الرؤية تتفاعل معها عبقريته"[3].

إن الإسلام جعل مسؤولية التغيير الاجتماعي تضامنية وفرضًا من فروض الكفاية، وجعل مسؤولية السقوط جماعية أيضًا، وشرع مسؤولية الحراسة والرقابة العامة للمجتمع، قاله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١٠).

لقد كانت خطوة الإسلام الأولى، هي تغيير ما بالأنفس وممارسة التحول الثقافي[4]: "إن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية، التي تحولت قبائل العرب بهدايتها من الفُرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة.. وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحًا

hiragate.com

جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا إليه من عزوة ومنعة". فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقي يجب علينا أن نبحث عنه وننشده.. أهو باق؟ أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ولم يبق من الإيمان إلا اسمه، ومن الإسلام إلا رسمه، ومن القرآن إلا الترنم به دون العمل بأوامره ونواهيه، إلى غير ذلك؟

لقد فقد المسلمون السبب الذي ساد به سلفهم، إن السبب الذي به استقام هذا الأمر، قد أصبح مفقودًا بلا نزاع وإن كان بقي منه شيء كباقي الوشم في ظاهر اليد.

فلو وعد الله تعالى المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لحقّ لنا أن نقول أين عزة المؤمنين من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون:٨)، ولو كان الله قد قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم:٤٧)؛ بمعنى أن ينصرهم بدون أدنى مزيّة فيهم سوى أنهم يعلنون كونهم مؤمنين، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر. لكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، ولكن المسلمين هم الذين تغيروا[٥]، والله تعالى أنذر بهذا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

إن الأمة الإسلامية اليوم تعيش مرحلة "القصعة" التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فقال قائل: ومِن قلّةٍ نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله مِن صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوَهَن"، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْن؟ قال: "حبُّ الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داود).

فمؤشرات الوهن الحضاري ومسبباته كما أشار إليها الحديث، حب الدنيا والإفراط الضخم في الاستهلاك، والتزاحم على المطالبة بالحقوق والهروب من القيام بالواجبات وعدم الشعور بالمسؤولية الخاصة والعامة، وكراهية الموت والرغبة في الإخلاد في الحياة.

ولن يتحقق أي نهوض أو بناء إلا بتصويب تلك المعادلة، وذلك إنما يكون بإعادة بناء الشخصية المسلمة اليوم، وصنع الإنسان المنتج، والتركيز على إنسان الواجبات لا إنسان الحقوق، فالأمة تحتاج إلى

ربط الله تعالى تغيير الحال بإرادة الإنسان ونشاطه، فإن أية محاولة للتغيير في واقع الأمة لا بد وأن تبدأ بالإنسان وتركز على بنائه الفكري، لأنه المفتاح الحقيقي لأي تقدم.

حراء

من يعطي ويتفانى في العطاء.

لقد أدى ضعف الشعور بالمسؤولية إلى حالة من الاضطراب في الموازين والخلط في الأوراق، فمن أبجديات المنطق الأولى أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وأن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه تقسيم العمل والتخصص، بل التخصص الدقيق في فروع المعرفة الواحدة، أما واقع المسلمين فلا يزال الرجل الملحمة الذي يدعى أنه فهم كل شيء هو الشخص المميز، فهناك من المشتغلين بالعلوم التجريبية من يقتحمون ساحة التخصص الشرعي الدقيق التي لا يبلغها إلا من أفنى عمره في بحثها، وعلى الجانب الآخر نرى بعض المشتغلين بالأمور الشرعية يُصرون على اقتحام ساحات العلوم التجريبية الدقيقة.

إننا نرى فئة ممن اختاروا طريق العلوم التجريبية من المتدينين، يشعرون بعقدة الذنب الداخلي بسبب اختيارهم لتوهُّم أن هذا التخصص لا يقع في دائرة العبادة، لذلك نجد مجموعة منهم تتحول من ممارسة التخصص العلمي سواء كان في الطب أو الهندسة أو غير ذلك للعمل في مجال الدعوة إلى الله، وكأن الكسب العلمي الذي يؤدي إلى تمكين الأمة، ليس من الدعوة إلى الله!

والأغرب من ذلك، أن يعتقد البعض بأن الله جعل الكفار -على حد زعم من يقول- في خدمتنا، فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا، أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج ليس من العلوم الإسلامية والتكاليف الشرعية! وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة وهُم في موقع الأسوة والقدوة. وكيف يقرأ هؤلاء قوله تعالى في بيان نعمه على سيدنا داود: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(سبأ:١٠)، ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾(سبأ:١١)، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾(الأنبياء:٨٠)، وكيف يقرأون قصة ذي القرنين في القرآن، الذي مكّن

hiragate.com

الله له في الأرض باتّباعه للأسباب[٦].

إن القرآن الكريم عمل على صياغة الفكر الإسلامي صياغة واقعية جعلت له منهجية عملية متميزة في تاريخ الفكر الإنساني، حيث وجّه العقل في سبيل إدراك حقيقة الغيب وسنن الكون، إلى مظاهر الطبيعة المادية وواقع النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

لقد استشعر المسلمون المسؤولية فنشأت لديهم خاصية في الفكر جعلت الواقع الكوني والإنساني منطلقهم لكل معرفة، وبرعوا في العلوم الطبيعية، وتميزوا في المجالات الشرعية، وكانت هذه الواقعية أساسًا للمنهج التجريبي الحديث الذي قامت عليه الحضارة الغربية حينما نقله "روجر بيكون" (Roger Bacon) عن التجريبيين الإسلاميين[٧].

إن وعي المسلمين وإدراكهم لدورهم الإنساني والحضاري، جعلهم على درجة عالية ودقيقة من الفهم والاستيعاب، فتكونت لديهم صفة المقارنة والنقد، واستطاعوا أن يستوعبوا علوم الأوائل، وأن يخضعوها للبحث والتمحيص والمقابلة مع التعاليم الإسلامية، دون أحكام مسبقة أو استعلاء أو تعصب.. فكانت لهم رؤى نقدية ثاقبة، وقد ظهر ذلك واضحًا فيما كتبه حجة الإسلام "أبو حامد الغزالي" في "مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة".

ولكن عند ضعف الوعي وضعف الشعور بالمسؤولية، يضيق الأفق ولا تتسع العقول للآراء المخالفة في العقيدة أو المذهب أو الفكر، ويحدث الرفض للآخر. يقول الشيخ محمد الغزالي: "لقيت متعصبين كثيرين، ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية، فوجدت آفتين تفتكان بهم، الأولى العجز العلمي أو قلة المعرفة؛ هؤلاء يحفظون نصًّا وينسون آخر، أو يفهمون دلالة للكلام هنا ويجهلون أخرى، وهم يحسبون ما أدركوه، الدين كله.

والآفة الثانية في التعصب المذهبي، سوء النية ووجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج، ويغلب أن تكون آفات الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والتسلط.

أرأيت إلى الشخص الذي قال لرسول الله ﷺ: "اعدل، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله"! إنه -والله- ما يغار على عدالة، ولا يأبى على جور، إنه طالب ظهور عن طريق الغيرة على القيم، يريد أن يقال عنه: لفت معلم الإنسانية إلى ما فاته، وأدرك ما لم يدركه، وهو صاحب الرسالة العظمى.

إنه هو وأمثاله كما قال رب العالمين: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(غافر:٥٦). ولقد تألم رسول الله ﷺ لهذا الكلام وقال لصاحبه: "ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل".

والواقع أن بين المتعصبين لبعض الآراء والمذاهب ناسًا حظهم من الإيمان بالغ التفاهة، ولذا اجتمعت الآفتان معًا على افتراس الأمة الإسلامية المغلوبة.

"إن القرآن الكريم عمل على قدح زناد الفكر البشري بنقاشه ثوابت الجاهلية، وهكذا في كل القضايا الاعتقادية والخلقية والاقتصادية، مما أوجد مفاهيم وحقائق وأحاسيس لها أدب يعبر عن وحيها"[٨]. ولكن عندما غُيّب وعي الإنسان وضعُف شعوره بالمسؤولية نحو نفسه وأسرته ووطنه ودينه -بسبب التعصب والغلو والتشدد- انتشر التكفير والتفجير، وأصبح القتل يمارس باسم الإسلام، واستغلت النصوص الشرعية لاستحلال إزهاق الأرواح والأموال والأعراض، مما أدى إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين. ■

(*) الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية / مصر.

الهوامش

(١) فتح الباري، ١٢١/١٣.

(٢) الإسلام في حياة المسلم، لمحمد البهيّ، ص:٢٨٨.

(٣) شروط النهضة، لمالك بن نبي.

(٤) رؤية في منهجية التغيير، لعمر عبيد، ص:٢٨-٣٠.

(٥) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، للأمير شكيب أرسلان، ص:٤١-٤٢.

(٦) تأملات في الواقع الإسلامي، لعمر عبيد، ص:٣٤-٤٢.

(٧) تجديد الفكر الديني في الإسلام، لمحمد إقبال، ص:١٤٨.

(٨) الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى، د. عبد المتعال الجبري، ص:١٤١-١٤٢.

hiragate.com

د. محمد ياسين*

النموذج المنشود

من الجدير بالذكر أن مشروع "الخدمة" في الأساس إطارٌ نظري، لكنه تحوَّل بفعل ما نُفِث فيه من طاقة روحية وحركية وفكرية وثقافية، إلى واقع حركي متميز. فـ"الخدمة" فكرة تحولت إلى مشروع انبعاث حضاري هدفه أن يحرك الأمة وينهض بها. وقد اختصر الأستاذ فتح الله كولن هذه القيم الإنسانية السامية المشتركة فيما يلي:

• الحريات، وحقوق الإنسان، واحترام المعتقدات، والانفتاح على الحوار.

• تنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، ورفض استغلال إمكانيات الدولة استغلالاً سيئًا، وضرورة المحافظة على المسار الديمقراطي.

• الثقة بالمجتمع المدني، وتوظيف التعليم لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات.

• ابتغاء مرضاة الله في كل قول وفعل، ومحبة الخَلْق من أجل الخالق.

• الوحدة الروحية والوعي الجماعي، بحيث لا يمكن لأي جهة خارجية التلاعب بهم بهدف خرق القيم.

من السمات العملية لتجربة الخدمة

١- التشارك والمؤسَّسية: ونعني بها ترجمة الأفكار إلى مشاريع، وتجسيد الإيمان بها في مؤسسات. ولا شك أن هذه سمة من أبرز سمات "الخدمة"، لكنها سمة مبنية على أسس فكرية وروحية في الأساس، أصَّل لها هذا العبقري الفذ، متخذًا من القرآن الكريم حاديه وهاديه، ومن الرسول الأعظم ﷺ قائدَه ومرشدَه.

وفي مقال "التشاركية في الأعمال الأخروية"، يذكر الأستاذ أن لهذه التشاركية البنَّاءة شروطًا لا بد منها كي تثمر الثمرة المرجوة، وتعطي النتائج المأمولة: التشاركية المبنية على سر الإخلاص، والتساند المبني على سر

الأخوة، وتوزيع المساعي المبني على سر الاتحاد.

وهذه العناصر الثلاثة، من السمات المرئية في تجربة "الخدمة" على الرغم من كونها أمورًا معنوية في الأساس، لكنك تشعر بها حين تخالطهم، أو تزور مؤسساتهم، أو تشاركهم أعمالهم.

والأعمال المؤسسية تحتاج إلى "الشورى"، والشورى مبدأ إسلامي سواء في الأعمال المؤسسية أو في الشؤون الفردية، لذا فإن الشورى كآلية لاعتماد العمل المؤسسي في تجربة كولن، تعدُّ وصفًا حيويًّا، وقاعدةً أساسيةً لا يمكن الاستغناء عنها.

٢– الهجرة من أجل الخدمة: يأخذ مفهوم "الهجرة" شكلاً عمليًّا ذا بُعدٍ عقائدي عند مشروع "الخدمة"، بل يمكن القول إن هذه السمة العملية والتي تعني التغرُّب لخدمة الناس في بلدانٍ أخرى، هي السمة الأبرز من الناحية المرئية في تجربة الخدمة.

ويحتل مفهوم الهجرة مكانًا بارزًا في خطاب كولن لأبناء الخدمة ومحبّيها؛ فيتناوله من زاوية أن الهجرة من أجل الخدمة "رحلةٌ مقدَّسة"، يقول موضحًا مدى أهمية الهجرة لرجل الدعوة: "الهجرة أساس مهم في كل دعوة كبيرة، ولا بد من تثبيت النقطة الآتية: لا يوجد رجل دعوة كبرى، ولا رجل فكر كبير، ولا رجل تحمّل عبء وظيفة عظيمة لم يهاجر.. لقد ترك كلُّ رجلِ دعوةٍ البلدَ الذي وُلد فيه، وذهب من أجل دعوته إلى بلدٍ آخر".

صحيح أن الهجرة إلى المدينة المنورة بمعنى الفرار بالدين انتهت، لكن كولن يدعوهم لأن تصير كلُّ مدينةٍ يهاجرون إليها "منورةً" بتعاليم الإسلام، يقول: "صحيح أنه لا توجد الآن "مدينة منورة" يهاجَر إليها، ولكن ستكون هناك مدن تحاول تقليد مثال "المدينة"، وبتعبيرٍ آخر، لكي نستطيع المثول بين يدي صاحب المدينة ﷺ علينا أن نُنشئ مدنًا عدة".

ألقِ نظرة على خريطة العالم، ضعْ إصبعك على أي مكان في هذه الخريطة وتساءل: هل لـ"الخدمة" هنا أثر؟ سيكون الجواب قطعًا: نعم، قد مرُّوا من هنا. إذا كان لي أن أختار سمة تميز الخدمة عن غيرها من مشاريع الصحوة والنهوض، فهي الهجرة، وإذا كان من حقي أن أقيِّم فكر الأستاذ فتح الله كولن ومشروعه الحضاري بالمقارنة بغيره من المشاريع الحضارية والأفكار التجديدية –وما أظنني أصلح لهذا– فلن أجد أعظم أثرًا وأبقى نفعًا من إحيائه مفهوم الهجرة على هذا النحو. الهجرة عند "الخدمة" ليست رحلة عابرة أو سياحة ترفيهية، إنها هجرة بمعنى اللاعودة، هجرة نفسية وبدنية وروحية.

رأيتُهم في نيجيريا قد حطُّوا رحالهم من زمن.. تسأل أحدهم: أما تحنُّ إلى بلدك؟ فيقول: هذه بلدي وهؤلاء هم أهلي. أطباء ومدرسون وإداريون، رجال ونساء، وهبوا أنفسهم للخدمة، ونذروها لله ﷻ، يقيمون صروح العلم، يشيِّدون المدارس، ويبنون صروح الحوار بين مختلف الثقافات، يواجهون بِصَمْت محاولات الإفساد المستمرة في إفريقيا السمراء وغيرها من الدول الفقيرة، ليس بالخُطب الرنانة ولا بالهجوم اللاذع، بل بالعمل الدؤوب دون كلل أو ملل.

٣– التفاني في الخدمة ونكران الذات: هذا العنوان (الخدمة) بقدر ما فيه من معاني التواضع، فإنه يدل على الجدِّية الكاملة، فالسنبلة الممتلئة لا تشمخ بأنفها إلى السماء وإنما تنحني تواضعًا بعكس السنبلة الفارغة، والإناء الفارغ أعلى صوتًا من الإناء الممتلئ. والأستاذ فتح الله كولن يُرشد ويوجه إلى الجمع الدائم بين روح التفاني مع عدم نسبة العمل إلى النفس، فـ"حديث النفس مثل: أنا فعلتُ كذا، وقمتُ بكذا، ليُقوِّض ركنًا من القواعد التي نرفعها من أجل غايةٍ عظمى في المستقبل وقد يحملنا على الأنانية والغرور. أجل، لأن نكون أفرادًا عاديين في هذا الأمر لهو أثمنُ شيء عندنا، فخيرٌ لك وأقْوَمُ أن تكون جنديًّا بسيطًا بباب الله دائمًا".

ومع هذه الدعوة إلى "الفناء" في الخدمة، فهو لا يفتأ يدعو إلى التفاني في العمل والأداء، والاستمرار في العمل للدخول من عمل دعوي إلى عمل دعوي آخر، فلا مجال للركون إلى الراحة. وفي درسٍ له يقول: "لا تأتوني بشخصٍ فَعَل هذا الأمر العظيم وأسَّس هذا الصرح العظيم، بل ائتوني بهذا البطل الذي أسَّس "مائة" مدرسة ولا يتذكَّر ما فَعَل ومتى فعل. ائتوني بذلك الأسد الذي أخذ بيد الكثيرين ممن ضلُّوا طريقهم، فساقهم إلى طريق الإنسانية الحقَّة، وارتقى بهم إلى القيم الإنسانية الكبرى، لكن إن سألته عن ذلك قال: لا أعرف، لا أتذكَّر.. ائتوني

hiragate.com

hiragate.com

بمن إذا فتح "إسطنبول" قال: لا أدري كيف حدث هذا؟ ليس لي من الأمر شيء.. لا تأتوني بالمُعجَب بعمله الذي إذا عمل عملاً وَزْنُه مثقال ذرة، يصوّره كالجبل".

تلك سمةٌ لستَ في حاجة إلى بذل المزيد من الجهد لتشعر بها، بل تراها رأي العين وأنت تتعامل مع أبناء الخدمة. لذا، فإن أحد أهم السمات العملية لتجربة الخدمة، والتي تعتبر أهم أسباب نجاح مؤسسات هذه التجربة، هو الالتزام الناشئ عن التفاني في العمل ونكران الذات. "إن سببًا رئيسيًّا لنجاح مؤسسات الخدمة، هو التزام وتفاني الأفراد الذين يديرونها، سواء كانوا أطباء أو إداريين للمستشفيات، أو مديري مدارس أو معلمين، أو موظفي وكالة الإغاثة.. فقد علَّقوا جميعًا بأنهم لا يعملون من أجل المال فحسب، بل لأنهم يؤمنون بما يفعلون، ونتيجة لذلك تمتدُّ ساعات العمل، مع ندرة الشكوى والتذمر من الوظيفة في كل المؤسسات، بل يشعر الأفراد بأنهم جزءٌ من أنشطة تستحق الجهد، وممتنُّون لأنهم يخدمون إخوانهم".

٤– عدم التحزُّب السياسي: في قراءتي لفكر الأستاذ كولن، لم ألاحظ أن هناك عداءً ما بينه وبين السياسة كمنهج، أو بين السياسيين كأفراد أو حكَّام؛ فهو لم يلعن السياسة كالإمام محمد عبده، ولم يستعذ بالله منها كالإمام النورسي، ولكنه تعامل معها من منطق أن "السياسة هي فن الإدارة التي تجلب رضا الله ﷻ ورضا الناس، وبنسبة قيام الحكومات -بما تملك من قوة وقدرة- بالمحافظة على شعبها من الشرور والمفاسد وصيانته من الظلم، تكون نسبة نجاحها وتوفيقها".

والأستاذ كولن باعتباره صاحب مشروع حضاري لنهضة المجتمع والأمة، لا يرى لزامًا عليه أن يدعو لتكوين "دولة إسلامية" تتبنى هذا المشروع النهضوي، فالرجل معنيّ بالمجتمع لا بالدولة، وبالأمة لا بالسياسة، وهو يحدِّد رسالته بأنها "تجديدٌ مستمَدٌّ من جذورنا التاريخية، وتربيةٌ لأبطالٍ جدُدٍ يستلهمون جذور المعاني ويرتبطون بها، وليست هناك حاجة إلى حكم إسلامي أو حزبٍ لتحقيق ذلك".

صحيحٌ أن حركة "الخدمة" ليست لها أهداف سياسية، كما أنه مما لا شك فيه أن هدفهم السامي هو إحياء الأمة ونهضتها، إلا أن هذه الأهداف لا بد وأن

تجربة الخدمة، تجربة بنائية شمولية حضارية متكاملة، قابلة للتعميم والاستفادة منها في المجتمعات العربية والإسلامية، وإنها تجربة إسلامية في منطلقاتها، إنسانية وعالمية في أهدافها ومراميها.

تتلامس مع السياسة من قريبٍ أو بعيد، سواء في ذلك سياسة الدول المحلية، أو السياسة العالمية.

إنَّ خُطَب الأستاذ كولن وكتاباته، حربٌ فكرية ضد أي ألاعيب سياسية للاستيلاء على المال العام وتزييف الوعي العام واستعباد الجماهير تحت أي لافته. يقول كولن: "الخدمة ليس لديها هدف سياسي بمعنى تأسيس حزب، بيد أن القيم والمبادئ التي تَعمل الخدمةُ من أجلها والتي تشكل الديناميكية الأساسية لـ"الخدمة"، لا بد أنها تتلامس مع السياسة".

إذن، إن الأستاذ فتح الله كولن داعيةٌ ذو تجربةٍ فريدة، وصاحب مدرسة فكرية حضارية جديرة بالبحث والتأمُّل وإمعان النظر في معطياتها وكيفية الاستفادة منها.. فشخصيته متعددة المعارف والمواهب، اجتمعت فيه صفات الداعية المربي القدوة، والمفكر الذي يعي مشكلات عصره وقضاياه، فضلاً عما يمتاز به من عاطفة جياشة، وزُهد وتعفُّف عمّا في أيدى الناس، بالإضافة إلى مقدرته الخطابية، وروحه الشاعرة، وأسلوبه الأدبي الراقي، وشخصيته الفذَّة التي تجمع ولا تفرِّق، وتبني ولا تهدم، هذا إلى جانب فكره المتدفِّق، وقلمه السيَّال، وحركته الدؤوبة.. فهو بهذا يُعدُّ شخصية دعوية جديرة بالبحث والدراسة، ليستفيد منها عموم الدعاة إلى الله ﷻ، سواء في تكوينهم الفكري والروحي، أو في حركتهم بين الناس.

وتعتبر التجربة الدعوية للأستاذ كولن، تجربة بنائية شمولية حضارية متكاملة، قابلة للتعميم والاستفادة منها في المجتمعات العربية والإسلامية.. فهي تجربة إسلامية في منطلقاتها، إنسانية وعالمية في أهدافها ومراميها؛ فهي تتبنى فقه الائتلاف حول المقاصد العليا للإسلام، دون الدخول في خلافاتٍ فقهية أو اختلافات فكرية، ومن ثَمَّ استطاعت

عرض الإسلام على شعوب الغرب في صورته الحضارية بعيدًا عن الصورة التقليدية التي يُروَّج لها عن الإسلام من خلال بعض وسائل الإعلام العالمية، التي دائمًا ما تربط بين الإسلام والإرهاب، وتجمع بينهما في بوتقة واحدة.

كما أن تجربة الأستاذ فتح الله كولن، تجربة دعوية خالصة سواء في المنطلقات والغايات أو في الوسائل والأساليب؛ فهي ليست تنظيمًا مغلقًا، أو حزبًا سياسيًّا، ولا حتى حركة ذات إطار محدد أو شروط عضوية مثلاً، وإنما هي طريق عمومي ليس ملكًا لأحد أو حكرًا على فئة أو طائفة، وطريقة في العمل الدعوي أبوابها مُشرَعة للناظرين مفتوحة للدارسين.. فكانت من هنا تجربة جديرة بالدراسة والعرض، لتكون بين يدي الدعاة نموذجًا عمليًّا يأخذ كلٌّ منه ما يناسبه ويطرح ما لا حاجة له إليه، ذلك أنها بحقٍّ استطاعت الجمع بين الفكر والحركة، والنظرية والتطبيق، والعقل والعاطفة، والتربية والسلوك، في توازنٍ فكري وحركية مبدعة، دون تقييد لحرية العاملين أو حجرٍ على إبداعهم. وأمتنا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى الجمع بين الفكر والحركة، وتحويل النظريات إلى نماذج حية واقعية، والسير على دربٍ يزاوج بين العقل والعاطفة والتربية والسلوك.

من خلال الدراسة النظرية والمعايشة الميدانية -وإن كانت محدودة- فإنني أستطيع القول كباحث، إن "الخدمة" حركة تجديدية، وإن الأستاذ كولن من المجددين الكبار في أمتنا، وهذا لا يخفى -في الحقيقة- على القارئ للأستاذ والمتابع لتجربة الخدمة، ويمكننا أن نرى ملامح هذا التجديد في الفكر والحركة على السواء.

ومن ملامح هذا التجديد، أن الرسالة التي تقدمها الخدمة تلبّي الاحتياج الذي تنشده الأمة بل الإنسانية في مجموعها، ومن معاني التجديد، أن يتوافق الفكر وتتلاءم الحركة مع حاجة الأمة أو "واجب الوقت". والأمة اليوم أشد ما تكون احتياجًا إلى "إنسانٍ جديد" و"جيل ذهبي" و"رجال فكر وحركة" و"وارثين حقيقيين للأرض"، وهذا عينه ما تقدمه لنا الخدمة في نموذجها العملي، وما يطرحه الأستاذ كولن في نموذجه الفكري. فتجربة الأستاذ كولن ليست معنيَّة بشيء من الأساس غير هذا؛ فهي تقدم صورة نموذجِ إنسان راقٍ في تمثله للقيم الإنسانية والإيمانية على حدٍّ سواء، نموذج رغم أنه يدور في فلك الإسلام إلا أنه لا يتصادم مع عالمه المحيط، نموذج يجيد قراءة عصره ويتوافق مع القواعد التشريعية والأوامر التكوينية. وتقدم التجربة في الوقت ذاته نموذجًا للديناميكية التي أُسِّستْ على الإرشاد والتبليغ، هدفها مرضاة الله ﷻ، ووسيلتها في ذلك خدمة الإنسانية، ونموذجها الأعلى عصر الصحابة الكرام ﷺ.

ومن ملامح هذا التجديد أيضًا، بعث الحياة من جديد في مفاهيمَ أصابها الجمودُ والتقليدُ ووقفت عند فهم واحدٍ لا تفارقه، فجاء الأستاذ ونفض عنها الغبار، وأحياها من جديد في ثوب قشيب فجمع بذلك بين فضيلتين: أنه لم يأتِ الناس بشيء لم يعرفوه من قبل بل هو عندهم محبوب ومرغوب، وفي الوقت ذاته أضاف لهذا المفهوم معنى جديدًا نحن في أمس الحاجة إليه، وإنْ شئت قلْ أعاد إليه رونقه الأول وبهاءه القديم، وهذا في الأصل هو معنى التجديد.

فمن ذلك مفهوم "الهجرة"؛ لقد منح الأستاذ لمفهوم الهجرة بعدًا رائعًا عبقريًّا بكل المقاييس، فالهجرة عنده منوطةٌ بمهمة النبوة لا بشخص النبي ﷺ، فما دامت أسباب الهجرة باقية، فإن الحكم باقٍ إلى يوم الدين؛ فحرَّر مفهوم الهجرة من إطاره التاريخي ومنحه بعدًا عقائديًّا عمليًّا يرتبط بالواقع أيّما ارتباط.

ومن ذلك أيضًا مفهوم "الوقف"؛ فقد مَنَحَ الأستاذ مفهوم "الوقف" بُعدًا عالميًّا وإنسانيًّا من ناحية الغاية، ومَنَحَه بعدًا ديناميكيًّا واقعيًّا من الناحية العملية، فنمت هذه الفكرة لتصبح مؤسسات ومشاريع عملاقة، وهيئات إغاثية، ومنابر فكرية، وكيانات اقتصادية.

كذلك هو الأمر في مفاهيم مثل "الإنفاق والبذل"، الذي تحول من كونه أداة لتفريغ الطاقة الإيمانية لدى المحسِن أو المتبرّع بإعطاء ماله للفقير والمحتاج إبراءً للذمة إلى وسيلة لإعلاء صرح الإيمان وإنشاء أجيال ترفع رايته، وتضمن استمرارية العمل الخيري الذي يمنع الفقر من منبعه. وكذلك مفهوم "الحوار" الذي أضاف له الأستاذ بعدًا عالميًّا وكونيًا ينطلق من جوهر رسالة الإسلام الذي هو "رحمةٌ للعالمين". ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

hiragate.com

أ.د. بركات محمد مراد*

الرفق بالحيوان

ضرورة حياتية وتربوية

من بين المقاصد الكلية الضرورية التي دل الشرع الإسلامي على حفظها واعتبارها؛ "مقصد المحافظة على الكون" بمفهومه الواسع الذي يشتمل على كل ما سخره الله لخلقه من بحار وأرض وجبال ومعادن وطبيعة. فما يحصل اليوم في حياة الناس من جراء التفاعل غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات ومجاعات وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية، إنما يعبر عن جهل الناس لمقاصد الشارع الحكيم، كما أوضحتها الديانات السماوية عامة والدين الإسلامي على وجه الخصوص، والتي دلت على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما دلت على حفظ الكون. فهذه الأخيرة تؤدي غرضين في موضوع الاستخلاف: التسخير المادي وما يشتمل عليه من خيرات هي قوام العمران البشرى، والبناء الحضاري في جانبه المدني والمعاشي.

إن مقاصد الشارع في الكتاب والكون والأنفس، وُضعت لتحقيق مصالح العباد في الدارين، وبها سيحصل الاستخلاف الذي وجد البشر من أجله. ومن ناحية أخرى فالبيئة بمعناها الشامل، قد تبدو في الظاهر أن لا علاقة لها بالأفراد من حيث دخلهم أو سكنهم أو رفاههم، ولكن تلوث البيئة أو الإخلال بها، من العناصر التي تنقض على الناس في مختلف دولهم وفئاتهم الاجتماعية دون استثناء وتنغّص عليهم حياتهم. بل أصبح من المؤكد أن أمراضًا بعينها هي نتاج حتمي للعبث بالبيئة أو إضرار بإحدى مكوناتها. وهناك في الحقيقة تساند بيئي في إطار معيشة الإنسان، فهو يعيش في إطار أنظمة رئيسية ثلاثة ليس له مخرج منها، لأنها تتحكم في حياته تحكمًا كاملاً، وتتفرع منها وتحيط بها أنظمة فرعية شتى.. وأما الأنظمة الثلاثة الرئيسية هي النظام البيولوجي، والنظام التقني، والنظام الاجتماعي.

وعندما استيقظ وعي الإنسان بالطبيعة المحيطة به، اكتشف في الوقت نفسه تبدل علاقاته بها؛ إذ وضع نفسه خارجها لكي يراها على نحو أفضل، ولكنه نمى آنذاك ميلاً ضارًا إلى رؤية نفسه مستقلاً عن الطبيعة، مما أفضى إلى فصم روابط التضامن القوية التي كانت تربط بين الإنسان وبيئته. ونجد أن الرؤية الإسلامية للإنسان والكون تعيد عُرى الترابط بينهما، وتوجد وشائج القربى بين ذلك الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض، وهذا الكون المسخر لخدمته ومساعدته على تحقيق رسالته.

وإن الإنسان وسط هذا المثلث من الأنظمة الثلاثة هو الفاعل الرئيسي، ونشاطاته في شدة أو خفوت التفاعل بين عناصرها سلبًا أو إيجابًا. فالإنسان هو المبتكر والمطوّر للنظام التقني، وهو القائد في النظام الاجتماعي؛ فقراراته -هنا وهناك- تؤثر في النظام الحيوي، وإن آثار قراره على استخدام الطاقة النووية لإنتاج الكهرباء غير آثار قراره عند استخدامه مساقط المياه أو الفحم الحجري لإنتاج الكهرباء. فالأنظمة الثلاثة إذن، تتفاعل من خلال قرارات الإنسان، ونتائجها تعود للتأثير على حياته. فالإنسان هو سبب تلك المشكلات البيئية، وهو هدفها أيضًا، وبالتالي فإن وعيه هو الأساس في تنظيم تفاعلات عناصرها.

وسوف نتوقف في بحثنا هنا عند جزء هام من بيئة الأرض المحيطة بالإنسان، وهو الخاص بـ"عالم الحيوان"، وكيف ينتظمه الإسلام في بيئة الكون البيولوجية والتي تحتاج إلى الرعاية والاهتمام، ويعتبر ذلك جزءًا أساسيًّا من اهتمام الإنسان المسلم بالطبيعة والكون وبالحياة المحيطة به، والتي هي في أمس الحاجة إلى رعايته واهتمامه.

إن للحيوان حق الرحمة والرأفة والاهتمام بالرعاية والعناية كحق الإنسان، وذلك لما له من خصائص وطبائع وشعور لا تقل عما لدى الإنسان، والشاهد على ذلك قصة النبي سليمان عليه السلام مع النملة التي كانت تحذر قومها من أن يطأهم سليمان وجنوده بالوادي، فتبسم إليها ضاحكًا، وجلس تحاوره ويحاورها بوحي من الله تعالى، لأنها وأمتها خلق من خلق الله.

والرحمة بالحيوان خُلقًا يوجب المغفرة، كما أن الإسلام قد كرّم الإنسان أحسن تكريم، بل إنه لا يقف عند هذا وإنما نجده قد حرّم تعذيب الحيوان، وجعل ذلك موجبًا من موجبات عذاب الله. فكما أن تحمّل الحيوان فوق طاقته مُنكر قد حاربه الإسلام واستنكره، نجده كذلك قد حرّم -في إطار حقوق الحيوان- إجاعته وتعريضه للهزال والضعف والتلف. فقد مر رسول الله ﷺ ببهيمة قد لصق ظهرها ببطنها، فهاله ما رأى من خرق حقوق هذا الحيوان، فانتفض غاضبًا

hiragate.com

وقال: "اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة" (رواه أبو داود).

ولذلك يقول الدكتور عبد الواحد بوشداق في بحثه عن"حقوق الحيوان في الإسلام": "ومما يستفاد من هذا الحديث، أن النفقة على الحيوان واجبة على صاحبه، ومما استخلصه الفقهاء كذلك أنه يُجبر كل من امتنع عن إطعام الحيوان على بيعه أو الإنفاق عليه أو ذبحه.

ويذكر التاريخ أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان يسير يومًا وهو يتفقد أحوال الرعية، فرأى رجلاً يسحب شاة برجلها ليذبحها، فهاله ما رأى من إساءة بالغة في حق شاة بكماء، فقال له: "ويلك قدْها إلى الموت قودًا جميلاً". ومما قرره فقهاؤنا من حقوق للحيوان، أنه إذا لجأت هرة عمياء إلى بيت شخص وجبت نفقتها عليه، إذ لم تقدر على الانصراف.

ولقد نال الرفق بالحيوان اهتمام الدولة الإسلامية ومؤسساتها الاجتماعية؛ فقد كان الخلفاء يذيعون البلاغات العامة على الشعب، يوجهونهم فيها إلى الرفق بالحيوان ومنع الأذى عنه. فقد أذاع عمر بن عبد العزيز في إحدى رسائله إلى الولاة، أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حق، كما كتب إلى أصحاب السكسك (النخاسون) ألّا يسمحوا لأحد بإلجام دابته بلجام ثقيل أو أن ينسخها بمرفقة في أسفلها حديدة.

وقد ورد في كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" لـ"الشيرازي" أنه كان من إحدى وظائف المحتسب، أن يمنع الناس من تحميل الدواب فوق ما تطيق، أو تعذيبها، أو ضربها أثناء السير، ومن يراه يفعل ذلك، أدّبه وعاقبه. ومن الطريف أن المسلمين جعلوا نوعًا من الوقف مخصصًا للعناية بالحيوان.

وقليل من الناس يعرف أن أرض معرض دمشق الدولي سابقًا، هي في الأصل وقف مخصص للحيوانات الأليفة الهرمة التي لم تعد نافعة لخدمة الإنسان، إذ كانت هذه الحيوانات تترك طليقة في ذلك المرج الأخضر، لتأكل من الحشيش الذي يزرع لها سنويًّا، وتشرب من مياه بئرها الجارية، وتستمر في تلك الحياة الرغدة الناعمة دون أن تكون عالة على أصحابها حتى يأتي أجلها. وما أبعد الفرق بين أن يُقتل الحيوان الهرم، وبين أن يترك آمنًا في مرج وقفي.

إن للحيوان في حياة الإنسان دورًا تربويًّا واضحًا، خاصة في مجال التعلم، وفي التأثير الأخلاقي والقيمي والنفسي.. إن الأطفال لا يتعلمون من البشر فقط، ولكنهم يتعلمون أيضًا من الحيوانات. والحيوانات حاضرة في حياة الأطفال بشكل كبير، سواء الذين يعيشون بالقرب منها في الأرياف والغابات والحقول، أو الذين يعيشون في المدن الحضرية.

دراسة الإنسان للحيوان مورد رائع للبحث في المستقبل، فثمة سلوكيات كثيرة في الحيوانات يمكن رؤيتها بسهولة وعرضها للأطفال في صور قصصية لتعليمهم قيم التعاطف، والمهارات التفاعلية، واحترام الآخرين، والوعي الذاتي والاجتماعي.

وهي مهارات مفيدة خصوصًا لدى الأطفال ذوي العاهات الخلقية، وكذلك لدى أصحاب حالات التوحد من الأطفال، وسوف يتعلم الأطفال قراءة الإشارات غير اللفظية، ولغة الجسد، ومن ثم يرتقون إلى قراءة الإشارات غير اللفظية لدى البشر، حيث يمكن للحيوانات أن تبين لنا كيف نرى العاطفة ونعبّر عن المشاعر، ونتواصل مع الآخرين دون كلمات. ■

(*) قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiragate.com

د. الشريف حاتم العوني*

لماذا أحبه؟

لماذا أحبه وهو يُلزمني بطاعته ويريد مني الخضوع له؟ تخيل رجلاً أخذك من ملجأ الأيتام وأنت في أسبوعك الأول، وأنت رضيع، فقام على تربيتك أحسن تربية؛ غذاك بكل غذاء يقيم أودك ويقوّي جسدك، وحماك من كل ما يؤذيك، عاملك خيرًا مما يعامل الآباء أبناءهم حبًّا وعطفًا وعطاء ماديًّا.. وهذا الرجل الذي تفضل عليك بكل هذا الإفضال لا يريد منك نفعًا، لا الآن ولا في المستقبل، بل هو مستغن عنك كل الغناء، فقد وهبه الله ذرية صالحة تغنيه عنك، حتى إنك لا تستطيع نفعه بشيء حتى لو أردت ذلك، لعظيم ثرائه، وواسع جاهه، وكثرة خدمه والمحيطين به. ومع ذلك هو لا ينفك ينفعك نفع الوالدين لولدهما المدلّل، لكن بحكمة وحسن تدبير.

وهذا الرجل بلغ من حفاوته بك أن علمك أحسن تعليم، وأرسل إليك أفضل الأساتذة وأعظمهم حكمة ليعلموك من علومهم ومن حكمتهم، لتكون قادرًا على نفع نفسك، والسمو بعقلك وفكرك إلى مصاف العلماء والمبدعين.ثم هو من واسع جاهه، وانتشار علاقاته، وعظيم خبرته بمؤسسات الدولة والشركات الخاصة والعامة، وبالمشاريع القائمة، لم يبق لك طمعًا بأن تكون أعرف منه بمصلحة نفسك، فأنت أول من يعترف له بأنه أفضل منك في معرفة الجهات التي يمكنك أن تنجح فيها، وأنت تعلم أنه لا يمكنك أن تنافسه في ذلك؛ فمثله يطير الناس فرحًا لو تمكنوا من أخذ مشورته في شؤون أعمالهم؛ لعلمهم أن علمه وخبرته تقوده دائمًا إلى أفضل المتاح.

وهو مع عطائه هذا، وبذله الكبير غير المنقطع، يتصف بصفات جليلة جميلة في أخلاقه وخلقته:

• فهو كريم رحيم يتودد إلى الناس، عادل لا يقبل الظلم منه ولا من أحد تحت إدارة ممتلكاته.

• وهو حكيم ثاقب الرأي، يكاد يرى الغيب من شدة ذكائه وعظيم فراسته ودقة تحليله للحوادث والشخصيات، حتى إنك لم تعرفه مرة جزم لك بشيء وتبين فيه غلطه، بل ربما اعترضت عليه مرات، وزعمت أنك عرفت ما لم يعرف، فإذا بهذا الرجل يتضح أنه هو الذي كان على صواب وكنت أنت المخطئ.

• وهو فوق هذا كله من أجمل الناس، تكاد تشرق الشمس في وجهه نورًا، كأنما مسحه ملكٌ من الملائكة جمالاً، فإذا تكلم تساقط الكلام من فيه كأنه حبات اللؤلؤ بلاغة وفصاحة ودقة.. وإذا ابتسم أغضيتَ من هيبة الجمال، وهيبة الجمال أعظم هيبةٍ، أعظم من هيبة القوة والخوف والبطش.

لقد أسرك هذا الرجل بإحسانه، أسرك بجماله، أسرك بعلمه، أسرك بحكمته، أسرك بحبه لك وسعيه في صلاحك. ثم بعد هذا تقول لماذا أحبه وهو يُلزمني بطاعته ويريد مني الخضوع له؟

أنسيت أن حبه لك يوجب عليك مبادلته الحب؟ أنسيت أنه أعطاك حبه دون استحقاق لك منه حبًّا ولا التفاتًا؟ وإنما أعطاك حبه لكرمه وطيب طبعه. أنسيت أنه

لا أشك أن صفة الجمال الإلهي وحدها لو استغرق فيها ابن آدم، لكفته غرقًا في حب الله، بل نجاة وسعادة في هذا الحب.

حراء

بذل لك ما لا يبذله الأبوان؟ أنسيت أنك مأسور لعلمه وحكمته وسلطانه وجاهه إذا كنت تريد لنفسك الصلاح والسعادة؟ أنسيت أنه لا يأمرك لمصلحته وإنما يأمرك لمصلحتك؟ أنسيت أن معصيتك لا تضرّه في شيء وإنما تضرك أنت وحدك؟

لقد كان الأولى بك أن تقول كيف لا أحبه؟ كيف لا أفرح بطاعته؟ كيف لا أُقبّل قدميه إجلالاً واعترافًا بالفضل، كما يخفض الأبناء جناح الذل من الرحمة لوالديهم؟ فإن صح هذا في مخلوق فكيف بالخالق الله ﷻ؟!

فهو الذي جعلك شيئًا بعد أن كنتَ لا شيء: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(الإنسان:١).

واختار لك أجمل صورة: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(الانفطار:٦-٨)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤).

وكرّم جنسك على باقي المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠).

وسخّر لك جميع خلقه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾(النحل:٤-٥).

حتى ملائكته جعلهم الله تعالى حفظةً لك: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(الرعد:١١)، ويستغفرون لأهل الأرض: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾(الشورى:٥).

وجعلك أهلاً للتعلُّم وعلّمك: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۞ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٣-٧).

أنسيت أنه كان قادرًا أن يجعلك غير مؤهل

hiragate.com

للتعلم؟ ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:٧٨)، فمن جعلك مؤهلاً للسمع والبصر والتعقّل؟ أنسيتَ أن القدرة على الاعتراض هي جزء من قدرتك على الإبانة عن نفسك؟ فمن وهبك هذه القدرة التي عُدت بها على خالقك ورجعتَ بها على واهبك إياها بالاعتراض؟ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(الرحمن:٣-٤).

ثم إنه تعالى اختار من البشر أفضلهم وأذكاهم وأزكاهم لتعليم البشر ما يسعدهم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٣٣)، ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(الحج:٧٥).

وجعل الله تعاليم شرائعه من أجل سعادتهم لا من أجل شقاوتهم، ومن أجل التيسير عليهم من مشاق الحياة، ومن أجل أن يخفف عنهم من أعباء الدنيا، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥)، ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾(النساء:٢٨)، ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة:٦).

هل تعلم أن الله تعالى يصلّي عليك حبًّا لك هو وملائكته: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب:٤٣)، ومعنى صلاته عليك لا مجرّد الرحمة والمغفرة -كما هو مشهور- على جلالة رحمته بك وغفرانه لخطاياك وشقاوتك، ولا هي إضافة إلى ذلك ثناؤه عليك وإشاعة ذكرك الجميل -كما قيل أيضًا في تفسيرها- وإنما هي ذلك كله انطلاقًا من تمام الحب وكمال الرأفة، حتى بلغ من حبه تعالى ورأفته بك أن كانت رحمته ومغفرته وثناؤه هي شأنه معك؛ إذ جاء في تفسير النسفي "لما كان من شأن المصلّي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنوًّا عليه وتَرَؤفًا. كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حُنُوّها على ولدها، ثم كثر حتى استُعمل في الرحمة والتَّرَؤف".

أنسيتَ أن طاعتك لا تنفعه ومعصيتك لا تضره: "يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا" (رواه مسلم)، وقال تعالى عن الهدي الذي يُذبح ليأكل منه الفقراء والمحتاجون: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٧)؛ أي الذي يرفعه لكم وينفعكم عنده هو مقدار إخلاصكم لله تعالى عند تقديمكم لتلك الذبائح، فلا تكون ذبائحكم ذبائحَ عُجْبٍ وتكبّر، ولا رياء وسمعة ولا مَنٍّ وأذى.

فمن لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك والذي لا يمكنك أن تنال من هيبة سلطانه بعصيانك؛ لأنك تعصيه بعلمه وبنعمه عليك وبتمكينه لك من ذلك، ولو أراد منعك من معصيته لما قدرتَ على شيء منها طرفة عين. ما الذي يجعله يغضب عليك إن عصيته؟ لماذا يغضب وهو أعلى وأجلّ من أن تضره بمعصيتك؟ لن يُفسّر غضبَه عليك من معصيته مع عدم وصولك بشيء من الضرر إلى جنابه، إلا إذا ما كان يغضب عليك لك؛ لأنه يحبك ويريد سعادتك وفي عصيانه شقاوتك! فهو لا يأمرك بطاعته لأجله هو، وإنما لأجلك أنت. فإذا عصيته أضررت بنفسك، وهو يحبك، وما ترك لك عذرًا في عصيانه ببلاغه شرعه على أحسن صور البلاغ.

أيها الإنسان، ألا تحب المبدعين؟ فكيف بمن أبدعهم.. ألا تحب المتقنين؟ فكيف بمن خلق هذا الكون بكل هذا الإتقان.. ألا تحب الجميلين؟ فكيف بمن خلق هذا الجمال.. فكيف بأجمل موجود ﷻ؟ والحمد لله تعالى أن حديث "إن الله جميل يحب الجمال" حديث صحيح في صحيح مسلم، وإلا لا تهمنا الجفاة بأننا إذا وصفنا الله تعالى بهذه الصفة أسأنا إلى جلاله. لا أشك أن صفة الجمال الإلهي وحدها لو استغرق فيها ابن آدم، لكفته غرقًا في حب الله، بل نجاة وسعادة في هذا الحب.

ألا تطيع الحكماء؟ ألا تسلّم لمن تعلم أنه يعلم أضعاف ما تعلم؟ فكيف بمن خلق علمك وكونك وعالمك الذي تتعلم منه؟ ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤)، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

hiragate.com

وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾(الحجرات:١٦)، ولا تعلم علمًا إلا بما أذن لك أن تتعلمه: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾(البقرة:٢٥٥).

إن حبك الله وطاعتك إياه وخضوعك له، مما يوجبه عليك حبه لك وإحسانه عليك وكمال صفاته جمالاً وكمالاً مطلقًا، وتوجبه حكمته وعلمه، ويوجبه خلقه لك من العدم، وأنك مملوك لربك، ولكنك مملوك محبوبٌ لمالكك، ولذلك ميزك بالعقل والتكليف الذي يجعلك أهلاً للتكريم.

فكان الواجب لا أن تقول: لماذا أحبه؟ بل أن تقول: كيف لا أحبه؟ وكان الحق يلزمك لا أن تقول: كيف أحبه وهو يُلزمني بطاعته؟ بل أن تقول: كيف لا ألتزم طاعته وهي طاعة لا ينتفع بها غيري ولا تضر معصيته سواي؟ وكان العقل سيرفض أن تقول: كيف يريد مني أن أحبه وهو يريد مني الخضوع له؟ لأن خضوعك له حاصل في طاعتك ومعصيتك، فما خرجت من خضوعك له في كلتا الحالتين: فلا أطعته إلا بإنعامه، ولا عصيته إلا تحت تمكينه وسلطانه، وبعد علمه وإذنه. كل الذي خرجتَ منه بالعصيان أن خرجتَ بنكران الجميل وكفران الإفضال، وسوء أخلاق المتنمّر على سيدك، وغباء المتطاول على من بيده إهلاكك وإصلاح حالك.

إن من لم يعلم لماذا يحب الله، أهل بأن لا يعلم لماذا يحب أحدًا من خلق الله، فما أحببتَ إلا بحبه تعالى. أرأيت حبك والديك، ألم يكن عطاؤهما ورحمتهما إلا جزءًا من عطاء ربك ورحمته؟ أريت جمال الحسناء الذي ذهبتَ في حبها كل مذهب، هل هي إلا هبة جمال الجميل ﷻ وقطعة من إبداعه؟ أوليس حبك لها نفسه نعمة من نعمه عليك، فما لحبك وحبها ليكون في ملك الله إلا بعد إذنه تعالى.

من لا يعرف لماذا يحب الله، فهو أهل أن يكون مخلوق الكراهية بكل ظلماتها وبجميع وحشتها وبعصارة آلامها، فلا تنتظر منه أن يحب إله المحبة. ■

(*) كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

أسماء الحسيني*

وسائل التواصل الاجتماعي

سلاح ذو حدين

شهد العالم ثورة هائلة غير مسبوقة في مجال الاتصال والتواصل وتدفق المعلومات، وهذه الثورة أنشأت تحدياتٍ هائلةً على مستويات عديدة.

وقد ربط انتشار شبكة الإنترنت في منتصف التسعينات أرجاء العالم، وأحدث ثورة حقيقية في عالم الاتصال جعلت العالم أشبه ما يكون بقرية صغيرة، ثم أصبح الآن أشبه ببيت متعدد الحجرات.

ولا شك أن وسائل التواصل الاجتماعي قد جسدت بشكل واضح هذه الثورة التكنولوجية والمعلوماتية، وقد فرضت وسائل التواصل الاجتماعي نفسها بقوة على حياة الأفراد والشعوب والمجتمعات، بل وعلى الحكومات وحياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والإعلامية والثقافية والأمنية والنفسية في العالم

كله، بما أصبح لها من تأثير لا يمكن تجاهله في تشكيل وتوجيه الرأى العام، وذلك عبر وسائطها المتعددة؛ المدونات، وفيسبوك، وتويتر، وواتس آب، وانستجرام، وسناب شات، ولينكد إن، ويوتيوب وغيرها.

ومن المؤكد أن لوسائل التواصل الاجتماعي التي لا يمكن الاستغناء عنها في عالم اليوم الذي يتطور بسرعة فائقة، الكثير من المزايا التي يمكن أن تنعكس على حياة المرأة المعاصرة بشكل إيجابي، لكنها في نفس الوقت لها العديد من السلبيات، أي إنها بمعنى أوضح، بمثابة سلاح ذي حدين، من لا يجاريه يتخلف عن عصره، ولكن في ذات الوقت لا يمكن الاستسلام لهذه التكنولوجيا المتطورة دون الوعي ببعض أضرارها والتصدي لتاثيراتها السلبية.

إيجابيات وسائل التواصل الاجتماع

١- تعتبر وسائل التواصل الاجتماعي ملاذًا وملجأ للعديد من النساء اليوم، اللاتي يجدن فيها موطئ قدم لهن، في وقت لا يجدن أي مساحات في الإعلام الرسمي الذي تتحكم فيه الحكومات أو رجال الأعمال أو المتنفذين، وبالتالي يستطعن أن يصلن بإنتاجهن أو أفكارهن إلى أعداد كبيرة من الناس، وأن يعبّرن عن أنفسهن بعيدًا عن حرّاس البوابات الإعلامية.

٢- يمكن القول إنه لولا هذه المساحات الواسعة في العالم الافتراضي، التي أتيحت في السنوات الأخيرة، لما تمكنت العديد من مواهب النساء في الأدب والشعر والكتابة وغيرها، من الخروج إلى العلن والتعبير عن أنفسهن في ظل سيطرة الوساطة والمحسوبية والاحتكار والرأسمالية.

٣- لا شك أن لوسائل التواصل الاجتماعي دورًا كبيرًا كمصدر للأخبار والمعلومات، وفي كشف الكثير من الحقائق التي تجهلها المرأة. ولن يستطيع أحد إخفاء المعلومات أو التحكم في نشرها، وهي في واقع الأمر سحبت البساط من أيدي الجهات التي تتحكم في المعلومات، وتريد أن تسيطر على الناس من خلال ذلك.

٤- يمكن أن تصبح وسائل التواصل الاجتماعي أدوات في يد المرأة للبناء وللتغيير الإيجابي في أسرتها، أو رفع الظلم عن مواطنيها أو بلدها، في زمن تفرض فيه الكثير من القيود على وسائل الإعلام.

٥- إن وسائل التواصل الاجتماعي يمكن أن تكون أدوات في يد النساء للتعارف وتبادل الأفكار، والتعاون واكتساب المهارات، والتعرف على الثقافات المختلفة.

٦- تسمح وسائل التواصل للمرأة بالاتصال والتواصل الفوري مع العائلة والأبناء والصديقات وعلى نطاقات أوسع، وتعلمها أشياء جديدة وتطور اهتماماتها وتوسع مداركها، وتساعدها على بناء شبكات مهنية في مجال العمل الأكاديمي، أو العمل التطوعي، أو في العمل السياسي والحزبي إذا كانت تعمل بالسياسة.

٧- في المجال الديني، هذه الفضاءات التي تتيحها وسائل التواصل، هي ساحة للدعوة ونشر الثقافة الإسلامية، ومكافحة الأفكار المنحرفة، والدفاع عن الدين الإسلامي.

٨- يمكن أن تصبح وسائل التواصل الاجتماعي أدوات تساهم في توطيد العلاقات الاجتماعية للمرأة، من خلال تبادل التحية والتهنئة في المناسبات والمواساة في الملمات، وهي وسيلة اتصال رخيصة الثمن بالطبع.

٩- تسمح وسائل التواصل الاجتماعي للمرأة بتطوير التعليم والتأهيل والتدريب.

١٠- قد تتيح لها فرصًا للعمل من داخل البيت.

١١- تسمح لها إن كانت تعمل في مجال الصناعة أو التجارة، بإدارة مبيعاتها والترويج لها.

١٢- وهي أيضًا نافذة مهمة للمرأة للبحث عن وظيفة، أو للتعرف على رغبات المستهلكين لإنتاج منتجات وتسويقها أو الدعاية لها.

رغم كل الأضرار التي يمكن أن تترتب على سوء استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، إلا أن إيجابياتها تظل أكبر من سلبياتها، بشرط العمل الجاد للحد من أضرارها، وذلك عبر تكوين الوعي لدى المرأة والمجتمع.

hiragate.com

١٣- يمكن أن تعمل المرأة من خلالها، على نشر القيم الإيجابية أو إطلاق مبادرات أو حملات.

الجوانب السلبية لوسائل التواصل الاجتماعي

أ- إنها تقرب البعيد وتباعد بين الأقربين، أي تقرب بين أشخاص تفصلهم مسافات بعيدة، وتقيم جُدُرًا عازلة بين أفراد الأسرة الواحدة؛ بين المرأة وزوجها وأبنائها، أو تفصل كل عضو في الأسرة عن غيره، حيث يظل كل منهم منشغلاً بجهازه الذكي عمن حوله وربما عن الدنيا كلها، وبذلك تتحول إلى أدوات انفصال وانقطاع، لا وسائل تواصل.

بـ- المبالغة في استخدامها يؤدي إلى إهدار الوقت أكبر ثروة تملكها المرأة.

جـ- الاستخدام غير الرشيد وغير الجاد لهذه الوسائل، يؤدي إلى إدمانها، وهذا الإدمان مدمر.

د- الاستخدام غير الرشيد لها يجعلها عرضة لمحتويات غير لائقة، أو أشخاص دون المستوى.

هـ- الاستخدام غير الرشيد لها، يؤدي إلى أضرار بالغة على الصحة النفسية والجسدية للمرأة، وفي مقدمة الأمراض التي تترتب على استخدامها لساعات طويلة، السمنة والسكر بسبب قلة الحركة للجسم، وكذلك الإرهاق والأرق وضعف النظر وغيرها.

ز- من الناحية الثقافية والعلمية؛ استخدام المرأة العشوائي وغير الجاد لهذه الوسائل، يؤدي إلى تراجع مستواها الثقافي.

حـ- الاستخدام غير الرشيد لهذه الوسائل يسبب مشكلات اجتماعية ونفسية للمرأة، ويؤثر على حياتها الأسرية. ولقد كشفت الدراسات أن ثلث حالات الطلاق في بريطانيا في عام ٢٠١١، كانت بسبب سوء استخدام الأزواج لوسائل التواصل الاجتماعي.

ط- هذه المساحات الواسعة من وسائل التواصل الاجتماعى التي تحتوي على كم هائل من بيانات الخصوصية عن الأفراد والمجتمعات أصبحت عرضة لاستخدامها والتحكم بها من قبل جهات تتسابق للسيطرة على الأفراد والشعوب، سواء اقتصاديًا أو سياسيًا أو أمنيًا، سواء كانت جهات محلية أو إقليمية أو دولية، أو حتى على مستوى أفراد يمكن أن يستخدموها للإضرار بأصحابها، وكلها أوضاع خطرة.

يـ- وسائل التواصل يستخدمها البعض في توجيه اتهامات ونشر معلومات خاطئة، أو تغريدات مضلِّلة، أو صور أو فيديوهات مفبركة؛ بغرض الإضرار بشخص أو جهة، والإساءة إلى الأبرياء.

ك- قد تسيء أيضًا، بعض الشخصيات أو الجهات استخدامها بصناعة صورة مزيفة عنهم، لاكتساب مزايا خاصة أو لتضليل الرأي العام.

لـ- قد تستخدمها بعض الجهات لإثارة الفتن، ونشر الشائعات، وتهديد الأمن والسِّلم والتعايش في المجتمع.

الخلاصة

في النهاية، يمكن التأكيد على أن وسائل التواصل الاجتماعي -كما أي أداة في الدنيا منذ بدء الخليقة- هي سلاح ذو حدين، وأن الحكم عليها يتوقف على مواصفات مستخدمها، وشروط استخدامها، والملابسات المحيطة بعملية استخدامها.

ويمكن القول إنه رغم كل الأضرار التي يمكن أن تترتب على سوء استخدامها، إلا أن إيجابياتها تظل أكبر من سلبياتها، بشرط العمل الجاد للحد من أضرارها، وذلك عبر تكوين الوعي لدى المرأة والمجتمع، والرقابة والتوجيه الإيجابي للمرأة على نفسها وأطفالها وأسرتها، والتوجه الجاد للمجتمع ليكون مجتمعًا منتجًا متطورًا لا مجتمعًا لاهيًا مغيبًا.. وبالعمل على تكوين وتأهيل وتطوير نسائنا بالوعي والعلم والمعرفة والثقافة، لتكون عقولهن عقولاً نقدية قادرة على التمييز بين الغث والثمين، وتأهيلهن أخلاقيًا ليراقبن الله في السر والعلن، والتصدي لأي انحراف أو فتن، وللتعامل الإيجابي مع وسائل العصر مع الاحتفاظ بالأصالة ومكارم الأخلاق، والحفاظ على التواصل الإنساني الدافئ الحميم. ■

(*) نائب رئيس تحرير صحيفة الأهرام / مصر.

hiragate.com

عبد الرشيد الوافي*

جوهرة الهند

١

الهند بلد يقع في رحابها الواسعة مجموعة كبيرة من القلاع والصروح والمباني الشاهقة، وقد وصف كل من زار الهند بأنها بلد السحر والجمال. ولكن هذا الإعجاب لا يرتبط بمناظرها الطبيعية فحسب، بل باللمسات الإنسانية التي تتمثل في آثارها المعمارية. ويتلألأ تاج محل بكل جماله وبهائه على رأس تلك الفنون المعمارية التي استعرضت فيها الشخصية الهندية الإسلامية كل مواهبها لكي تجعلها تحفة فريدة من نوعها. ويعدُّ تاج محل أعجوبة من عجائب الدنيا السبع قد تم إدراجه في قائمة الأماكن التراثية التي يجب حمايتها من قِبل اليونسكو عام ١٩٨٣م.

تاريخ وعمارة

يقع تاج محل في مدينة "آجرا" المتربعة على الضفة الجنوبية لنهر "جمنة" المشهور، ولا تزال هذه المدينة إحدى المناطق السياحية التي تجذب سياح العالم إليها بجمالها وبقصر تاج محل فيها.

وهذا الصرح (تاج محل) شيده الإمبراطور المغولي "شاه جهان" (١٥٩٢م-١٦٦٦م)، ليخلد ذكرى زوجته "ممتاز محل" التي توفيت أثناء الولادة (١٦٣١م)، لذا يمكن القول إن أشهر ركن في هذا الصرح التاريخي الرخامي الأبيض، الذي يمتد على مساحة ٤٢ فدانًا، هو ضريح ممتاز محل. تزوج السلطان من ممتاز محل عام ١٦١٢م، كانت سيدة مؤمنة، حيث اشترطت على شاه جهان قبل الزواج، ألا يشرب الخمر، وأن يقيم الصلاة، وأن يحكم بما أمر الله، مما يؤكد على صلاحها وحرصها على الدين وأموره. فضلاً عن أنها بنت المساجد، واهتمت بكتابة المصاحف، ودافعت عن حقوق النساء، وأسست البيوت لتربية اليتيمات وتعليمهن، كما كانت ترسل كل عام مائة مسلم للحج على نفقتها الخاصة.

أحب شاه جهان زوجته حبًّا جمًّا، ولما توفيتْ حزن حزنًا شديدًا، فأراد أن يخلد ذكراها، فبنى ضريحًا لها أذهل بجماله الفني العالم أجمع على مر العصور.

تم الشروع ببناء هذا الصرح عام١٦٣١م، وانتهى عام ١٦٥٣م. شارك في بنائه ما يزيد عن عشرين ألف بنّاء، جاؤوا من شتى بلاد الهند وبلاد فارس وأوروبا وتركيا، بالإضافة إلى إيران وسوريا وآسيا الوسطى.. وعهد الإمبراطور إلى مجموعة من المهندسين الماهرين الإشراف على عملية البناء، كأحمد لاهوري مصمم تاج محل، وإسماعيل أفندي مصمم القبة الرئيسة، وعيسى شيرازي، وعيسى محمد الأفندي، وأما رئيس الخطاطين فيه فكان أمانة خان.. تم إنشاؤه على نمط الفن الهندي الإسلامي، وأثبت هذا القصر مكانته كأيقونة معمارية رائعة في فن العمارة الإسلامية، ليعدَّ رمزًا في الفن المعماري إلى يومنا هذا. والجدير بالذكر أن هذا الصرح يضم إليه مجموعة من المباني الفاخرة التي تضفي على الضريح جمالاً وبهاء وجوًّا مهيبًا.

تاج محل

هو ضريح أنيق مبني من الرخام الأبيض الذي يتغير لونه بانعكاس ضوء الشمس أو ضوء القمر على سطحه، ويتغير لونه بتغير فصول السنة وأوقات اليوم؛ حيث يظهر بعد الفجر بلون وردي، وفي وقت الظهيرة بلون أبيض ناصع، ثم يتحول إلى اللون الرمادي قبل الغروب. استخدم المهندسون -تطبيقًا لأوامر الملك- ٢٨ نوعًا من الأحجار الثمينة لترصيع الضريح، كما جُلبتْ الأحجار من دول وبلدان مختلفة، كالصين والهند وأفغانستان والجزيرة العربية؛ أحضر الرخام الأبيض الشفاف من راجستان، واليشم من البنجاب، والكريستال من الصين، والفيروز والتبت والليس من أفغانستان، والياقوت من سيلون، والعقيق من الجزيرة العربية.. أما التكلفة الإجمالية لبناء تاج محل فقد بلغت ٥٠ مليون روبية تقريبًا في ذلك الوقت.

يتخذ المبنى شكل مصطبة بأربع زوايا، لكل منها مدخلها الخاص، وعلى كل زاوية منها مئذنة، وتعلو المبنى قبة رئيسة يبلغ ارتفاعها ٢٢,٥ م، وللتمكن من رفع القبة شيدت سقالة هائلة، ويقع تحت القبة الرئيسة ضريح "ممتاز محل" المزدان بالرسومات والزخارف والكتابات الإسلامية والنقوش الحجرية الجميلة. ولا بد من الذكر أن الملك شاه جهان تم دفنه بالقرب من زوجته تحت القبة نفسها، ونقش على قبريهما آيات من القرآن الكريم وأسماء الله الحسنى. هذا وبمجرد دخول الزائر الضريحَ، يرى غرفة مركزية مرتفعة تحتها غرفة الدفن، بالإضافة إلى وجود العديد من الغرف المبنية لدفن الأعضاء الآخرين من العائلة الملكية. ومن عجائب هذا المبنى، بناؤه على خاصية النظير التام؛ فكل جزء من نقش أو قبة أو مئذنة على اليمين، يوجد لها

ضريح شاه جهان بجوار زوجته ممتاز محل

نظيرها التام على اليسار. والضريح ينعكس كليًا على جدول الماء الأمامي، ونجد في الداخل بوابة جميلة مزخرفة بسورة يس من القرآن الكريم.

المسجد ودار الضيافة

في نهاية الضريح يقع مبنيان كبيران مشيدان من الحجر الرملي الأحمر مفتوحان على جانبي المقبرة، يوازي جدرانهما الخلفية البنايات الشرقية والغربية، كما أن هذين المبنيين يتطابقان من حيث الشكل. ويعد المبنى الغربي مسجدًا، والمبنى الشرقي المقابل جوابًا، يتمثل الغرض الأساسي من بنائه في إحداث التوازن المعماري، وقد استخدمه الناس دارًا للضيافة. ويمكن أن نجد اختلافات بين هذين المبنيين؛ فمبنى الجواب لا يحمل في قاعته محرابًا وأرضيته تتمتع بتصاميم هندسية رائعة، أما أرضية المسجد مبنية من الرخام الأسود تفترشها عدد من السجادات للصلاة، وتتمتع بمحراب جميل المنظر، والمسجد يشتمل على رواق طويل تعلوه ثلاث قباب مقوسة شامخة.

حديقة شارباغ

يستطيع الزائر أن يطلع على حديقة جميلة تكشف عن الذوق الهندي الإسلامي في تنسيق الحدائق، وتسمى الحديقة "شارباغ"، وتصل مساحتها إلى ٣٠٠ م٢، وتقوم الحديقة على الممرات البارزة التي تقسم كل جزء من أجزاء الحديقة الأربعة إلى ١٦ روضة منخفضة. ومما يلفت الأنظار إلى الحديقة، الحوض المرتفع الذي يتوسطها، كما تحتوي الحديقة على بركة عاكسة لصورة الضريح. ويسمى الحوض الرخامي بـ"حوض الكوثر"، إشارة إلى الحوض الذي وعد الله به نبيّه محمدًا ﷺ. والحديقة بنيت على طراز الحدائق الفارسية التي أدخلها إلى الهند الإمبراطور المغولي الأول بابور.

البوابة الكبرى

هذا المبنى مدخل رئيسي مقوس يبلغ ارتفاعه وسط تاج محل، وهو مشيد بالمرمر والأحجار الحمراء، ويزدان بمجموعة من النقوش الحجرية الرائعة إلى جانب الزخارف النباتية والأزهار.

دار الضيافة

تاج محل في عيون الكتّاب العرب

لقد تغنى الكثير من الكتّاب والشعراء العرب بالبدائع التي حملها هذا القصر التاريخي في طياته. وصفه أحد الشعراء المعاصرين -مثلاً- فقال:

مجد تشع به آي الرخام على
شعب وفي لعصر العزة الحالي
لم يخش خطبًا ولم تجر الحتوف له
يومًا بغير الذي يلقى على بال

ووصفه آخر فقال:

أقبرًا أرى أم أرى فيك قصرًا
تألق تاجًا على هام "آجرا"
وأضفى على البدر في الأفق سحرًا
ورتل في مسمع الكون شعرا

وعلّق الكاتب علي الطنطاوي على هذا القصر فقال: "لقد صنعت الأيدي الممتازة من قطعة الرخام أروع بناء، ونقشت عليه هذه الرسوم البديعة التي لم يعرف مثلها في الفن، وحتى اليوم يأتي الزوار من كل أقطار العالم إلى "آجرا" قرب "دلهي"، ليشاهدوا قبر تاج محل، وليسمعوا أعظم وأروع قصص الحب".

وفي الختام نعود لنؤكد أن هذا القصر العالي يعدّ من أهم المعالم الأثرية، حيث يزوره أكثر من ٢٠٠ ألف سائح كل سنة من خارج الهند، ولا يزال هذا الصرح التاريخي رمزًا للحب النقي ونموذجًا للفن المعماري البديع يضرب به المثل. ■

(*) جامعة كيرالا بولاية كيرالا / الهند.

فتح الله كولن

ليتني كنت أنينًا

كم تمنيت أن أكون أنينًا في صدور البكّائين وأنفطر من الهمّ.. أن أكون أنينًا وأريكم كيف يكون الانفطار من الهمّ، لكن قلبي قاس لم أستطع اختراقَ قسوته، لم أحسن القول فيما أريد، لم أستطع أن أكون أنينًا، لم أستطع أن أساعدكم، لم أستطع أن آخذ بأيديكم.. كان ينبغي أن تكونوا نورًا، أن تكونوا سحابًا، أن تقتحموا بجيادكم حرائق تلفح السماء بلهيبها هنا وهناك.. لكنكم ستقتحمونها حتمًا، سيأتي يوم تقتحمونها. الأيام ترقب قدومكم، وأنتم تسعون إليها مسرعين. الزمن حزين، الزمن منكسر القلب، الزمن قد فرش منديله كمتسوّل في منعطف من منعطفات الحياة، يترقب أحدًا يتصدق عليه حفنة من الحزن، ينتظر حفنة من الهمّ. أنتم ستُدخِلون أيديكم في قلوبكم كما تفعلون عند التصدّق على سائل، وتنثرون مكابداتكم وآلام قلوبكم على منديله، بل سترسلون أمطارًا من الرحمة، فإذا بنيران الفتن تنطفئ، وإذا بنيران المعاناة المتأججة منذ ثلاثة قرون تخمد.

سلوك يدعو إلى التطلع

ليست العبرة بكثرة الكلام على المنابر، العبرة أن تكون مرآة لحقيقة "إذا رُؤي ذُكر الله".. هذه سمة العظماء من رجال الله؛ إذا رأيته ذكّرك بالله، هذا هو المؤمن الحق. "يا من إذا سجد تجلى الله"، قيل هذا في سيدنا رسول الله ﷺ، يصف القرآن الكريم تقلّباته أثناء السجود ﷺ فيقول: "وتقلّبك في الساجدين". إنه ﷻ يرى كيف تتقلب وسط الساجدين لكي توفي مهمة العبودية حقها، يرى كيف تجهد نفسك لكي يصير هؤلاء الساجدون عبادًا لله حقًّا.. من يراكم على هذه الحال من الاحتراق، سيتساءل "ما القصة؟ لماذا أنتم هكذا؟" هذا السؤال -في الحقيقة- فرصة للتعبير عن قضيتكم، فرصة لتوضيح سلوككم أو شرحه أو وضع حاشية عليه، فرصة ذهبية للحديث عن الحقيقة، وهذا هو المطلوب.

مجالس تغبطها الملائكة

كان الصحابة يتزاورون فيما بينهم ويقولون لبعضهم: "تعال نؤمن ساعة"؛ يروي ذلك أحمد بن حنبل عن عبد الله بن رواحة ﷺ، تعال نتعبد إلى الله ساعة، يقول ذلك لكل من يلقاه من الصحابة.. "تعال نؤمن ساعة"، يعني تعال نعمق بحثنا في حقائق الإيمان، تعال نفتح صفحة جديدة في مدارستها واستيعابها، تعال نحللها قطعة قطعة، ونتمعن فيها مرة أخرى، نُعمّق النظر في حقيقة الكون من جديد.. فجاء أحد الصحابة إلى رسول الله يشكو ابن رواحة: "ألا ترى ابن رواحة! يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة". هذا الصحابي الجليل الطيب لم يفهم مقصد ابن رواحة، فقال الحبيب المصطفى: "يرحم الله ابن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة".. يحب أن تكون مجالسه مثل مجالس الملائكة، أن تكون مجالس تغبطها الملائكة، مجالس تعشقها الملائكة.. إذن فالمجالس التي يُذكَر فيها الحق سبحانه مجالس تغبطها الملائكة.

تلوث يدمر كل عمل

على الجميع أن يحذر من تلويث لسانه، لأن تلوّث اللسان من تلوّث الجَنان. ما لم يفسد القلب لا يفسد اللسان. فاسد القلب مشغول اللسان بالنقد والغيبة على الدوام، ولا يشفع له أن يقول "قلبي نظيف، أنا أخدم لله، وأتحرى سبيل الخدمة"، لن يصدقه أحد. طهارة القلب تثمر بيانًا طاهرًا وأفكارًا نقية، لننتج أفكارًا إيجابية، أفكارًا بديلة.. لنطرح أفكارنا على الرأي العام ومجالس المشاورة، لندافع عن أفكارنا وفق الأصول، وبأسلوب يتوافق مع أدب النقاش والمناظرة. وإذا لم تلق أفكارنا قبولاً، فلتطرحها في وقت آخر مرة أخرى وبأسلوب آخر. لنعرض فكرتنا بأسلوب "التصريف" الذي يعلّمه القرآن لنا، ولكن لنتجنّب الغيبة ولنبتعد عن النقد السلبي، لأن ذلك يذهب بخير وبركة الخدمة التي نقوم بها. لا خير في عمل تلوّث بالانتقاد والغيبة، بل لو كان عملكم بحجم عمل سيدنا جبريل عليه السلام وحظيتم بالخلود وعملتم إلى الأبد، وأخلصتم في عملكم أيما إخلاص، ووصلتم إلى القمة في الإخلاص، أقول لكم، وربما أقسم لكم، بل أقسم لكم، والله وبالله وتالله، لن تجنوا خيرًا ولا بركة منه إن تلوث بالغيبة. لو أن خدمتكم هذه قام بتمثيلها ملائكة من أمثال جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، وانتقدوا بعضهم بعضًا على فرض المحال، واغتابوا بعضهم بعضًا، فلن تحصّلوا خيرًا ولا بركة منها.. تعملون ليل نهار، تقطعون الجبال والقفار، لكنكم لا تتقدمون قيد أنملة. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش. هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ المنشورة.

صفاء الدين محمد*

يفتح الطفل عينيه على نور الحياة ليجد مصدر الحب ومصدر الطعام، فالأم تضمه إلى صدرها ليستشعر دفء الحب والعاطفة، وليطعم في نفس الوقت.. ومن هنا كان للبدانة علاقة بالنفس، فهي ليست أمرًا تحدده العوامل الجسمية فحسب، بل العوامل النفسية أيضًا؛ فأول علاقة بالأم تكون عن طريق الفم والتقاط الطعام للكف عن البكاء، ويصبح الطعام أحد العوامل الرئيسية والأولية التي تشكل العلاقة العاطفية بين الأم والطفل، ويصبح الطعام وسيلة لإزالة التوتر لدى الطفل.

وعجيب أن يكون للسمنة أساس من علم النفس، فالناس يظنون أن السمنة تتعلق بكثرة الأكل مع الراحة، أو ترجع إلى عوامل وراثية، في حين أن الوراثة ليست المسؤول الأوحد، وطبيعي أن يكون الإكثار من الطعام مع الراحة أحد العوامل التي تتدخل في إحداث السمنة، وطبيعي أن يكون لنوع الأكل أثر كبير في إحداث السمنة، إذ إن التفنن في تقديم الأطباق

الشهية، يدفع الإنسان إلى أكل ما لا يحتاج إليه ليتلذذ بالتهامه فيسمن.. وواضح أن هناك حالات يكون لإفراز الغدد دخل فيها، وما نسعى إلى توضيحه من الموضوع يهمل الناس التفكير فيه وهو الجانب النفسي.. ونلاحظ أن الغرض الرئيسي من تناول الطعام، هو توفير الطاقة للجسم ليقوم بوظائفه الأساسية في الحياة، فإذا ازداد الطعام عن احتياجات الجسم، يختزن الزائد على هيئة دهون تحت الجلد فتحدث السمنة.

أمراض السمنة

والبدينون يعانون من أمراض شتى، منها ضغط الدم، وصعوبة التنفس عند التعب، وعدم تحمل الحرارة، وكثرة العرق، وتصلب الشرايين، والاضطرابات الهضمية، والصداع، والدوخة، والأرق، والالتهابات الجلدية، وأمراض القلب، وتآكل المفاصل والعظام، وإنهاك الكبد.. ولقد وجد "جوسلين" أن كل عشرين مصابًا بالسكر تجاوز الأربعين عامًا، منهم ثمانية عشر بدينًا، وواحد نحيف، وواحد عادي، كما لاحظ أن الحالة النفسية والذهنية أفضل عند المتحرر من البدانة، ووجد أن البدناء يحتاجون إلى كمية من الطاقة أكثر من العاديين، ويفقدون الطاقة أكثر إذا عملوا.. ويعلم مريض السمنة أنه -وهو يأكل ويأكل- يزيد من الأمور تعقيدًا، وأنه ليلحق الضرر بنفسه عضويًّا، ويعلم أن ذلك يزيد من تشويه صورته ويعرضه للنقد والسخرية، وينشئ جوًّا من المشاعر السلبية حوله، وأن ذلك يضره في عمله ويفسده علاقاته الاجتماعية.

علاقة علم النفس بالسمنة

لقد أكدت الدراسات أن الإنسان البدين يتمتع بسمات نفسية خاصة، وأن الزيادة بالوزن تحدث نتيجة عوامل نفسية، وهنا تأتي مقاومة المريض الداخلية لخفض وزنه؛ وعادة يقول السمين بأنه لا يأكل كثيرًا، فهو صادق، لأن حجم ما يأكل البعض منهم ليس بكبير، ولكنه يتخير الأغذية الغنية بالسعرات الحرارية العالية من حلويات ونشويات ومسكرات ومشويات.. ولاحظ رجال علم النفس أن السمنة تحقق للمريض توازنًا نفسيًّا يحتاج إليه، أو تحميه من انهيار نفسي؛ فالسمنة تؤدي وظيفة لصاحبها، ولهذا يتمسك بها برغم أنه يتألم منها بعقله الواعي ولسانه. إن السمين يكره شكله البدين، ويسعى جديًّا للبحث عن وسيلة للعلاج، ولكنه يفشل. إذن، هناك قوى من تحقيق ما يريده عقله الواعي، وهذه القوى موجودة بعقله الباطن (اللاشعور)، قوى تبغي

لاحظ العلماء أن الحالة النفسية والذهنية تكون أفضل عند المتحرر من البدانة، ووجدوا أن البدينين يحتاجون إلى كمية من الطاقة أكثر من العاديين، ويفقدون الطاقة أكثر عندما يقومون بعمل ما.

الحفاظ على السمنة للحفاظ على صاحبها من الانهيار النفسي. والعديد من البحوث، أكدت أن أثناء فترة الرجيم (الحمية) ومع الانخفاض الملموس بالوزن، يكتئب المريض وتهبط معنوياته ويحزن، وينتابه القلق والمخاوف والإحساس بالعزلة والفراغ والوحدة.

تقول مريضة بالسمنة: في البداية كنت فرحة بنجاح خطة الرجيم (الحمية)، وانخفض وزني بشكل ملحوظ، وهذا زاد من حماسي وإصراري، ولكن فجأة داهمني حزن مخيف وكأن الكيلوجرامات التي فقدها جسدي تجمعت فوق صدري، ولم أعد أرى أن وجهي بدأ يسترد جماله الحقيقي الذي كان مختفيًا تحت الشحوم، بل كنت أرى أنه اكتسى بالحزن والهم والأسى، وشعرت بالعزلة وانتابني الخوف، فاندفعت بجنون نحو الطعام، وأكلت بلا وعي، وحينئذ فقط بدأ الهدوء يعود إلى نفسي الحزينة. فالطعام بهذه الحالة علاج وتهدئة لآلام الاكتئاب والفزع، ولعل الارتباط بين الطعام والاضطرابات النفسية تكون في مرحلة مبكرة من العمر، وأكدته الأم عندما يصبح الطعام أحد وسائل المكافأة عند الإتيان بالسلوك الحسن، ومع الوقت لا يستطيع الطفل التفرقة بين حالة الجوع والحالات الوجدانية الأخرى، ففي كلتا الحالتين يجد الطعام لإزالة الجوع ومعالجة الحالة الوجدانية التي يمر بها، وبعد هذا، حين يكبر وحين يشعر بالاكتئاب أو الخوف، يصبح هو الوسيلة لتهدئة هذه المشاعر.

خصائص نفسية واجتماعية

وأجريت دراسات على شخصية البدين أجمعت على

أنه يتمتع بحب الذات والعناد، وعدم مقدرته على إقامة علاقات اجتماعية مثمرة، مع الحساسية الزائدة والسلبية أحيانًا، وعدم النضج وهدوء الطباع ورهافة الحس.. ونلاحظ قيامه ببعض السلوك العنيف الهوجائي أحيانًا. وبالطب النفسي نلاحظ أن كل تكوين جسمي يكثر به أمراض نفسية معينة؛ فالشخصية البدينة أميل إلى المرح والانبساط والسعادة، ويكثر بها جنون الهوس والاكتئاب.

العلاج النفسي

إن للمعالج النفسي في علاج البدانة أو السمنة، دورًا إيجابيًّا يشمل نصح المريض؛ بأن لا يشرد ذهنه أثناء تناول الطعام، مع عدم تناول أطعمة بين الوجبات، والامتناع عن المسليات كاللب والمكسرات والشيكولاته، وأن يقلل من الدهنيات والنشويات والمخلَّلات التي تفتح أبواب الشهية على مصراعيها، مع العلاج النفسي الدقيق والعميق، وللتخلص من السمنة لا بد من إزالة جذور التوتر النفسي والفراغ، وأن يسير حسب نظام السعرات الحرارية بكل وجبة، وعلى أن يكون قوي الإرادة، فلا يهتم بالشعور بالجوع، وعليه بالتمرينات الرياضية، والمشي، والقيام بالرحلات والمعسكرات لملء الفراغ، والبعد عن مؤثرات الحزن والضغوط.. فتعتبر السمنة انتحارًا لا شعوريًّا داخليًّا، وغالبًا ما يكون المريض في حالة إلى مَن يحميه من نفسه، ويحميه من تحطيم ذاته.. وكل هذا سيكون له علاقة مؤكدة بطول العمر. قال "نابليون" إن الانتصار الوحيد الذي يدوم ولا يترك وراءه أسفًا، هو الانتصار على النفس. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) حكايات نفسية، للدكتور عادل صادق، كتاب اليوم الطبي ١٩٨٤م.

(٢) مبادئ الأمراض النفسية، للدكتور عمر شاهين والدكتور يحيى الرخاوي، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.

(٣) مشكلات وصور نفسية، للدكتور عبد العزيز القصوي، دار المعارف ١٩٨٣م.

hiragate.com

د. منى سليمان*

جهود الخدمة في مناطق الصراع

تتبنى تجربة "الخدمة" "قيمًا إنسانية سامية متسقة مع المعايير والأعراف الدولية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ومنها احترام حقوق الإنسان، والمساواة بين المواطنين دون أي تمييز، واحترام المعتقدات وتقبّل الآخر، والانفتاح على الحوار، وتنزيه الدين عن الأغراض السياسية الحزبية الضيقة، واحترام القانون، والثقة في المجتمع المدني، وتوظيف التعليم لإحلال ثقافة السلام في المجتمعات".. وتعد هذه القيم التي تؤمن بها "الخدمة" منطلقًا إيجابيًّا تعمل من خلاله على رأب الصدع في كل المناطق التي تنشط فيها، وسوف نوضح هنا رؤية الخدمة الفكرية والتطبيقية التي عملت من خلالها على معالجة الآثار السلبية الناجمة عن النزاع المسلح في مناطق جنوب شرق تركيا ذي الأغلبية الكردية، وإعادة تأهيل الإنسان والعمران لتجفيف منابع الإرهاب، والوصول بالمنطقة إلى المستوى المنشود من الازدهار الحضاري.

الرؤية الفكرية

تُعدُّ الرسالة المطوّلة التي بعث بها الأستاذ "فتح الله كولن" عام ٢٠٠٨م إلى رئيس الوزراء التركي آنذاك "رجب طيب أردوغان"، بمثابة وثيقة حية تعبر عن رؤية الأستاذ -ومن ثم الخدمة- في كيفية القضاء على الأزمة الكردية من جذورها في شرق تركيا، وإحلال قيم الأمن والسلام والتعايش والتنمية والازدهار، محل الإرهاب والترويع وإزهاق الأرواح وتخريب المدن وتشريد المجتمعات وتبديد الممتلكات.

أوضح الأستاذ "كولن" في بداية رسالته، أن الحل الأمثل لعلاج أي مشكلة والتصدي لحلها، لا يكون بإزهاق الأرواح وهدم المنازل على أصحابها وإحراقهم فيها وإثارة الفوضى وإشعال الفتن وتأجيج الصراعات، إنما ينبغي التصدي لها بنور العقل والحكمة، وتغليب جانب الرحمة على جانب الانتقام والتنكيل. وتضمنت مقترحاته لحل هذه المشكلة ما يأتي:

أ–الإعمار: يجب أن تتركز أولوية الحل، على مسألة إعمار المنطقة (المقصود بها محافظات الأغلبية الكردية في جنوب شرق تركيا) بحيث تصبح مركز جذب، من خلال العمل على تنمية المنطقة لإعادة بنائها وإحيائها بصورة متكاملة، حتى تعود مركزًا هامًّا للحضارة والازدهار، وترتقي إلى مستوى من العمران يغبطها عليه الجميع، ومن ثم يشعر سكان هذه المناطق بالرضى عن أوضاعهم، والسعادة بتواجدهم فيها كما كان عليه الحال في التاريخ. وينبغي بذل كافة الجهود بجدية تامة وإخلاص كامل، لتحقيق التنمية المستدامة وتحويل المدن الشرقية إلى حواضر زاهرة.

ب–التعليم: ينبغي أن يُنظر إلى مسألة التعليم في المنطقة بشكل جدّي؛ لأن حلَّها سيحل تلقائيًّا مشاكل أخرى عديدة. كما يجب التركيز على نوعية المعلمين الذين يُعيَّنون للتدريس في هذه المناطق، إذ عليهم أن يتلقوا تدريبًا خاصًّا يؤهلهم للتضحية حتى بأنفسهم من أجل تعليم إخوانهم هناك، وينبغي أيضًا أن يذهبوا إليها دون أن يفكروا بالعودة إلى مدنهم، بل ينبغي أن يفكروا بأنهم ذهبوا ليموتوا هناك ويدفنوا هناك. ينبغي إرسال معلمين أكفاء يمتازون بروح الإيثار والبذل، ويحملون أهدافًا سامية وغايات نبيلة، لينشئوا جيلاً متوازنًا سليمًا إذا توفرت لديهم المؤسسة التربوية المتكاملة. وسوف تكون شهادات طلاب هذه المدارس –وخاصة صغار السن منهم– عن معلميهم هؤلاء، شديدة التأثير في نفوس ذويهم، وسيكون لها وقعها الإيجابي في تليين مشاعر الأهالي، وبعث الثقة في نفوس أهل شرق تركيا كافة إزاء أهل غرب تركيا.

جـ–السماح بتدريس اللغة الأم "الكردية" والتحدث بها: لقد اقترح العلامة "بديع الزمان سعيد النورسي" مشروعًا بتأسيس جامعة باسم "مدرسة الزهراء" في مدينة وان شرقي تركيا منذ عهد المشروطية (الدستور) ١٩٠٨م. كما اقترح أن تُدَرَّس اللغات الثلاث "العربية والتركية والكردية" جنبًا إلى جنب في تلك الجامعة، على أساس أن يكون تدريس العربية فرضًا والتركية واجبًا والكردية جائزًا، وهو ما نكرر اقتراحه اليوم كجزء من الحل للقضية الكردية، أن تكون اللغة الكردية لغة اختيارية في مدارس جنوب شرق تركيا، وكذلك يجب أن تُنشأ إذاعات وقنوات تلفزيونية كردية، لأن التعليم باللغة الأم حق إنساني لا يصحّ أن يكون موضوعًا لأي مساومة سياسية. وهذه الأنشطة التربوية ستُسهم في منع الصعود إلى الجبال، والمقصود هنا منع التحاق الشباب بحزب العمال الكردستاني، وهذا ما حدث فعلاً.

د–الرعاية الصحية: ينبغي الاهتمام بالرعاية الصحية عبر توفير مؤسسات ومراكز صحية في هذه المناطق. ويمكن تخصيص طبيب ممارس عام لكل قرية كردية. ويمكن لهؤلاء الأطباء إلقاء دروسٍ ومحاضرات في المدارس حول الطب الوقائي لرفع مستوى الوعي الصحي، والحيلولة دون حدوث بيئات قابلة لأمراض شتى. ولا شك أن اختلاط الأطباء بالعائلات من خلال الممارسة المهنية من جهة، وعن طريق الأطفال الذين يدرّسونهم من جهة أخرى، سيسهم في غرس أفكار وآمال ورؤى إيجابية في نفوس أهالي تلك المناطق.

هـ–إزالة الانطباع الخاطئ عن الجيش التركي: إن تعيين جنود وضباط من القوات المسلحة يحسنون التواصل مع أهالي المنطقة والاندماج معهم، يعمل على إزالة الصورة النمطية الخاطئة التي تشكلت في أذهان الشعب الكردي عن الجيش التركي عبر عقود؛ فالجيش في الذهنية الشعبية هو مدبِّر الانقلابات على الديمقراطية دائمًا، وهو الذي يمارس أصنافًا من الاضطهاد والقمع.

و–الاستقرار الأمني بلا عنف: ينبغي العمل على انتقاء ضباط شرطة شرفاء جادين في عملهم يتسمون بشخصية قوية، ويقدسون واجبهم الوظيفي، ويتحلَّون بمشاعر البذل والعطاء، ولديهم الحماسة لبث الأمن والطمأنينة في قلوب الناس؛ ليذهبوا وليكونوا نماذج حقيقية للأمن الحقيقي عبر مد جسور التواصل الإنساني مع المواطنين الأكراد، وممارسة الرياضة مع الأطفال إن أمكن، يقدمون لهم هدايا، ويقيمون علاقات وطيدة مع الشباب. فتَلقّي أحد هؤلاء الأطفال هدية من أخيه الشرطي، ستجعله لا ينظر إلى دولته بعين سيئة من ناحية، وتقيه شر الانخداع بعصابات المافيا والإرهاب المحرّضة على الجيش والشرطة من ناحية أخرى.

ز–تحسين السلك الإداري: إن عملية انتقاء واختيار

hiragate.com

كوادر السلك الإداري من محافظين وولاة، ومساعدي ولاة وآخرين، لا تقل أهمية عن العناصر سالفة الذكر، ولذلك ينبغي أن يتم انتقاء النخبة الإدارية بعناية خاصة من بين الكفاءات التي تحمل أهدافًا نبيلة، وتسيطر على أنانيّتها، وتقدم حياة الآخرين على حياتها وسعادتهم على سعادتها؛ همُّهم الأول تقديم خدمة المواطنين على مصالحهم الشخصية، ويتسمون بالصبر والتواضع وحسن المعاملة. وعلى الدولة أن تحضّهم على الاختلاط بالشعب في أسواقهم ومنازلهم ودور عباداتهم ومستشفياتهم ومراكزهم الصحية ومقراتهم الأمنية وثكناتهم العسكرية وهيآتهم الإدارية.

حـ–انتقاء كوادر دينية محلية مدرَّبة: ينبغي أن يوظَّف رجال دين يتقنون لغة أهل المنطقة، ويعرفون طبيعة الشعب الكردي بكل تفاصيلها، يجيدون تحليل سكان المنطقة وقراءتهم قراءة صحيحة بتفاعل عاطفي جادّ، ويتعاملون معهم عن معرفة ودراية.

ط–توفير الدعم المعنوي والتثقيفي والأمني للوجهاء الدينيين في المنطقة: في شرق تركيا للقيادات الدينية من مشايخ وعلماء ووجهاء دينيين، مكانة كبيرة، فلو أقيمت دورات تثقيفية لهم تقدم رؤية الحكومة هذه، وتوفر كافة التدابير الأمنية اللازمة لهم، وتحثُّهم على رفع معنويات الأهالي، لأسهَم ذلك في رفع الوعي في هذه المناطق. ولو أضيف إلى ذلك توظيف الدعاة الشباب الذين تَربّوا على أيدي هؤلاء العلماء أئمةً وخطباء في مساجد مختلفة من شرق تركيا، لعمَّت الطمأنينة كافة الأرجاء.

ي–إفساح المجال لمؤسسات المجتمع المدني للعمل بتلك المناطق: ينبغي ألا يُعالَج الإشكال من خلال تدابير سياسية وعسكرية وإدارية فحسب، وألا تُترَكَ المهمةُ للمسؤولين الحكوميين فقط، بل ينبغي إفساح المجال لمؤسسات المجتمع المدني، وأن تَبذُلَ كافةُ شرائح المجتمع أقصى ما في وسعها، من أجل تعزيز الوحدة الوطنية، ونبذ كافة أسباب الفُرقة والنزاع والشقاق.

وهذه المقترحات التي وُثِّقت في رسالة الأستاذ "كولن" هي رؤيته لحل القضية الكردية، ونجد أنها تتوافق مع النهج العام للحركة وآليات عملها. وقد لعبت الحركة دورًا إيجابيًّا في الدفع بعملية التحوّل الديمقراطي بتركيا

بدأت "الخدمة" بمعالجة جوهر الأزمة الكردية وهو "الإنسان" عبر الاستثمار في تعليم الشباب الكردي وإيجاد فرص عمل مناسبة لهم، ثم رفع مستوى الوعي الثقافي لديهم، ليصبح أمامهم فرص أخرى غير البديل المسلح الساعي لتحقيق حلم الانفصال بعيد المنال.

قدمًا، بعد "الانقلاب الناعم" بالبلاد عام ١٩٩٧م، وسعت للقضاء على التحديات التي تواجه تقدم المجتمع التركي، وهي "الجهل" و"الفقر" و"المرض" و"الانشقاقات" داخل المجتمع، ولهذا وجَّه كولن محبِّيه إلى العمل في المجتمع المدني على مواجهة تلك التحديات؛ من خلال الاستثمار في التعليم والإعلام والعمل الإغاثي والخيري، لترسيخ هوية للمجتمع التركي تَقبَل بالاختلافات، وتجمع بين مختلف التوجهات والتناقضات، مثل الإسلامي والعلماني، اليميني واليساري، القومي التركي والقومي الكردي.. وهكذا.

الجهود الميدانية في الشرق التركي

وقد تنوعت جهود الخدمة لمعالجة المسألة الكردية في هذه المناطق إلى عدة مجالات مختلفة تشمل ما يأتي:

أ– الجهود التعليمية:

كانت اجتماعات "الشاي" الدورية بمثابة عامل للتوعية بين السكان المحليين الذين اتفقوا على أن الدولة غير قادرة على توفير الخدمات التعليمية الضرورية في كل محافظات جنوب شرق تركيا، وكان بعضهم يعتقد أن الدولة التركية العلمانية حرمت عمدًا المنطقة من المدارس وغيرها من الخدمات الأساسية لمعاقبة سكانها الأكراد.. والنتيجة أن عدد الشباب العاطلين وغير المتعلمين في تلك المناطق يزداد باطراد، ويشكلون المصدر الرئيسي للانضمام لحزب العمال الكردستاني المسلح؛ فاتفق السكان المحليون والمتطوعون من "الخدمة"، على أن يتحملوا مسؤولية معالجة مشكلة التعليم في تلك المناطق، ثم انتشرت الفكرة على نطاق أوسع في أوساط السكان المحليين حتى وصلت إلى مسامع رجال الأعمال الأكراد الأثرياء في إسطنبول وغيرها من المدن التركية الكبرى،

hiragate.com

فسارعوا إلى تأييدها وقدموا الدعم المادي اللازم لإنشاء مؤسسات تعليمية، وبالفعل أُسست "الخدمة" مئات المنشآت التعليمية في المحافظات الكردية.

كانت أول المؤسسات التعليمية التي أسستها الخدمة في الشرق التركي، هي مراكز التأهيل الجامعي في محافظتي "ديار بكر" و"أورفا" عام ١٩٨٨م، التي تم تمويلها من قبل رجال الأعمال الأكراد المحليين الذين قاموا بتطوير علاقات الصداقة من خلال "محادثات الشاي الأسبوعية" بينهم، ثم بدأ التوسع في إنشاء المؤسسات التعليمية المختلفة، بدءًا من الحضانة ورياض الأطفال، وانتهاء بالمؤسسات الجامعية المختلفة، ومن ذلك على سبيل المثال:

لم تقتصر المؤسسات التعليمية على المدارس الإعدادية والثانوية، بل ابتكرت حركة الخدمة ما أطلق عليه "قاعات القراءة" أو صالات المطالعة، وهي بمثابة مكتبات عامة مجانية مفتوحة للقراءة والاستذكار طوال العام، وبها عدد من المتطوعين يقدمون الدعم المدرسي والنفسي للطلاب المترددين على هذه المكتبات. وقد أنشأت الخدمة ٢٥ قاعة للقراءة والمطالعة في ديار بكر وحدها، تقدم خدماتها لأكثر من ٣٠٠٠ طالبٍ سنويًا. وبحلول عام ٢٠٠٩م، بلغ العدد الإجمالي لمؤسسات التعليم في المحافظات الكردية نحو ٢٨٩ مؤسسة تقدم خدماتها لنحو ٨٤٢٨٢ طالبًا.

هذا إلى جانب "داخليات" أو مساكن للطلاب التي أسست في البداية بشكل محدود، وكان يشرف عليها عدد من المتطوعين يسيرونها ببرامج محددة في التربية والتعليم والسلوك، ثم ما لبثت هذه المؤسسات أن انتشرت بعدما لمس أهالي المنطقة التغيرات الإيجابية في سلوك أبنائهم وتفوقهم الدراسي، حتى عمَّت هذه المساكن أغلب المدن والمناطق في شرق تركيا، بل فتحت حتى في بعض القرى، وكان القائمون عليها شباب أغلبهم من غرب تركيا، ليساعد ذلك على الاندماج المجتمعي بين الشرق والغرب، ويعزز من شعور ضرورة الوحدة ونبذ فكرة الانفصال.

ب- الجهود الإغاثية:

لم تكتفِ الخدمة بالمؤسسات التعليمية فقط، بل عملت على محاربة الفقر في تلك المحافظات عبر فتح فروع جديدة لمنظمة "هل من مغيث؟" الخيرية التابعة لها، حيث افتتحت عام ٢٠٠٤م أول فروعها في جنوب شرق البلاد، وكان لها دور مهم عام ٢٠٠٦م، خاصة بعد الفيضانات الشديدة التي تعرضت لها المحافظات الكردية، حيث وزَّعت معونات قُدِّرت بحوالي ٢ مليون يورو، وقدَّمت مساعدات لنحو ١٧ ألف أسرة عام ٢٠٠٦م و٦٠ ألف أسرة عام ٢٠٠٧م.

جـ- الجهود الاجتماعية:

دعا الأستاذ كولن في دروسه الأسبوعية ومواعظه الدورية، إلى تطوير أواصر العلاقة بين شعوب الشرق والغرب التركي، فبدأت على إثر ذلك فعاليات الأخوة المتمثلة فيما يأتي:

١- توأمة المدن: وتعني أن يتكفل أهالي مدينة من مدن الغرب (من المتطوعين في الخدمة والمحبين لأنشطتها) بكل احتياجات مدينة من مدن الشرق التركي؛ سواء في المشاريع التجارية على مستوى رجال الأعمال، أو المنح الدراسية للطلاب، أو الرعاية الإنسانية والصحية للمحتاجين منهم، وذبح الأضاحي والفعاليات الرمضانية، ودعوة أهالي المدينتين بعضهم البعض للتواصل والتزاور، وإنشاء شراكات تجارية وتعليمية واجتماعية مختلفة.. ومن ذلك التوأمة بين مدينتي "بورصه" و"ماردين"، و"إسطنبول" و"ديار بكر، و"إزمير" و"بتليس".. وهكذا.

٢- توأمة المدارس: وتعني أن تتآخى إحدى مدارس الخدمة الخاصة المتواجدة في منطقة من المناطق، مع مدرستين أو ثلاث مدارس حكومية من مدارس الشرق التركي، ومن ثم تقوم بتوفير كل ما يلزم لهذه المدارس من وسائل تعليمية متطورة، وإقامة دورات تدريبية لرفع كفاءة المعلمين والمعلمات في هذه المدارس، ومنح المتفوقين والمتفوقات من طلاب هذه المدارس منحًا تعليمية متنوعة، وتخصيص مقاعد مجانية في مدارس الخدمة الخاصة ذات المستوى العالي لطلاب وطالبات مدن الشرق ذات الأغلبية الكردية بنسب تصل إلى ١٥ في المائة، هذا فضلاً عن ترتيب رحلات علمية وثقافية مجانية بشكل دوري، لزيارة المتاحف والمعالم الأثرية في المدن الكبرى في تركيا، مثل إسطنبول، وبورصه، وإزمير.

٣- توأمة العائلات: وتعني أن تقوم بعض الأسر

hiragate.com

hiragate.com

-وخاصة أسر رجال الأعمال والميسورين ماديًّا- بالتآخي مع بعض العائلات في الشرق التركي، وتنظم هذه العائلات مع بعضها البعض برامج تواصل يتزاورون فيها، ويتكافلون فيما بينهم ماديًّا ومعنويًّا وفق روح الأخوة والتعاون، وردم الفجوات النفسية والاجتماعية التي تكونت عبر السنوات بفعل العوامل المختلفة.

د- الجهود الاقتصادية:

لطالما كانت مناطق الشرق التركي ذات الأغلبية الكردية واعدة باقتصاديات جيدة، بسبب كثرة ووفرة الثروات الطبيعية الموجودة فيها، ووفرة الأيدي العاملة وقلة تكلفتها، ولكن الإرهاب كان يقف حائلاً أمام أي مشروع واعد يستغل هذه الطاقات والإمكانات، ويسهم في القضاء على أبرز مشاكل المنطقة وهي "البطالة" التي كانت تدفع بالشباب إلى الالتحاق بعصابات المافيا، أو العصابات الإرهابية المسلحة، مما كان يفاقم من مشكلات المنطقة. ولكن بالجهود التجارية المنظمة التي قامت بها تجربة الخدمة، تم تحجيم كثير من هذه المشكلات.

كما عملت الخدمة على تشجيع المستثمرين الكبار من الأكراد، الذين كانت لهم مشاريع ضخمة في المدن التركية الكبرى للاستثمار في مناطقهم، وتحمل مسؤولياتهم في هذا الاستثمار.

هـ- الجهود الثقافية:

ذكر الأستاذ كولن في رسالته إلى رئيس الوزراء التي تحدثنا عنها سابقًا: "أن اللغة الكردية ينبغي أن تكون لغة اختيارية في مدارس جنوب شرق تركيا، وكذلك يجب أن تُنشأ إذاعات وقنوات تلفزيونية كردية، لأن التعليم باللغة الأم حق إنساني لا يصحّ أن يكون موضوعًا لأي مساومة سياسية"، ورغم أن هذه التوصية كانت موجهة في الأساس إلى الحكومة، فإن المتطوعين من أبناء الخدمة قد سارعوا إلى تنفيذ هذه التوصية، وأنشأوا أول قناة تلفزيونية خاصة ناطقة باللغة الكردية لأول مرة في تاريخ تركيا الحديثة عام ٢٠١٠م، وأطلق عليها "دنيا تي في"، هذا إلى جانب محطة إذاعية.

خاتمة

وقد اكتسبت تلك التجربة تميزها في أنها ابتكرت آليات جديدة لمعالجة النزاع المسلح، حيث بدأت بمعالجة جوهر الأزمة وهو "الإنسان" عبر الاستثمار في تعليم الشباب الكردي وإيجاد فرص عمل مناسبة لهم، ثم رفع مستوى الوعي الثقافي لديهم، ليصبح أمامهم فرص أخرى غير البديل المسلح الساعي لتحقيق حلم الانفصال بعيد المنال، الذي إذا تحقق سيبدأ معه سلسلة جديدة من المشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية، وربما الاقتتال على الهوية أو العرقية أو الطائفية. ولذا فإن ما فعلته "الخدمة" أنها قدمت للأكراد بديلاً جديدًا في الحياة، غير الموت الذي يقدمه لهم استمرار النزاع المسلح.

وجدير بالذكر أن السلطة الحاكمة الحالية بقيادة "أردوغان"، منذ أحداث قضية الفساد في ١٧ و٢٥ ديسمبر ٢٠١٣م، وبعد اتهام هذه الحكومة -بلا أي سند أو دليل- الخدمة بتدبير انقلاب مدني قضائي ضدها، قامت بإغلاق مئات المدارس، وصالات المطالعة، وجمعيات رجال الأعمال الناشطة في هذه المناطق وفي كل تركيا، وفصلت المعلمين والمعلمات من وظائفهم، وصعدت إجراءاتها بعد الانقلاب المزعوم في يونيو ٢٠١٦م، فاعتقلت كل من له أدنى صلة بـ"الخدمة" كرديًّا كان أو تركيًّا.. وتوقفت تمامًا كل جهود وأنشطة الخدمة في هذه المناطق، وعادت الحلول الأمنية تطرح نفسها من جديد، ولا سيما بعد اعتقال السياسيين الأكراد، وإسقاط عضوية نوابهم المنتخبين ديمقراطيًّا من البرلمان.. وصارت المنطقة بؤرة للصراع من جديد بعدما كانت على وشك الحل النهائي نتيجة الجهود السالف ذكرها سياسيًّا واجتماعيًّا.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف ستنعكس هذه الإجراءات على شرقي تركيا في المدى القريب والمتوسط والبعيد، في ظل غياب أقوى فاعل مدني حقق إنجازات ملموسة على أرض الواقع؟ وهل ستستطيع الحكومة الحالية سدَّ هذا الفراغ الكبير الذي أحدثه غياب "الخدمة" كفاعل مدني رئيسي في هذه المناطق؟ هذا ما ستخبرنا به الأيام لاحقًا. ■

(*) كاتبة وأكاديمية وباحثة مصرية.

hiragate.com

د. سعيد سهمي*

مستقبل التعليم

يبدو أن الحديث عن مستقبل التعليم في العالم العربي هو في الوقت ذاته حديث عن مستقبل العالم العربي ككلٍّ في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها؛ لأن التعليم هو منطلق التقدم والتغيير، وكل أشكال التحول التي تمس التعليم من شأنها أن تؤثر على مستقبل الأمة ككل. ويبدو أن إشكالية الحديث عن مستقبل التعليم في الوطن العربي، تجعلنا نفترض للأسف -ومن خلال الواقع- مستقبلاً مظلمًا، لا سيما أن جل الدول العربية حتى الآن لم تأخذ الاحتياطات اللازمة للتطور والتحول والتغيير في المدرسة والجامعة. والمستقبل هنا يتخذ بُعدًا وجوديًّا يرتبط بالكيفية التي سيكون عليها التعليم في المستقبل الذي لا يمكن أن نحدده زمنيًّا في قرن -مثلاً- وإنما بعد عقد أو عقدين، لأن العصر الذي نعيشه اليوم يتسم بالسرعة المفرطة، في زمن طغت عليه الرقمية والتكنولوجيات العالية والدقيقة،

حتى إنه لنتصور في العصر المقبل -على سبيل التخمين- روبوتات تقوم بتدريس روبوتات أخرى، في حين يطرح البعض التساؤل حول إمكانية قيام الروبوت نفسه بتغيير أنماط حياة الإنسان وسلوكه.

المدرسة العربية اليوم

باستثناء بعض الدول العربية التي استثمرت في التعليم وطورته كما هو الحال لبعض دول الخليج، فإن التعليم في الوطن العربي تجعله معظم الدول آخر اهتماماتها. فالمدرسة العربية تُصنَّف في مؤخرة دول العالم، كما أن الجانب البيداغوجي لم يرق إلى الدرجة التي يراد لها أن تضاهي المدرسة العالمية. فهو تعليم تقليدي يركز في مجمله على الآداب والعلوم الإنسانية، ويقوم على بنية تقليدية (نظرية) في تدريس العلوم والتقنيات، وهو ما ينذر بالكارثة في المستقبل، بحيث تبقى التقنية ملكًا للآخر. كما أن اللغة العربية لم تستطع أن تواكب التغيير، وإنما ظلت جل الدول العربية تستعير اللغات الأجنبية في تدريس العلوم والتقنيات.. هذا التحدّي على مستوى ازدواجية اللغة -لغة عربية في المدرسة ولغة أجنبية في الجامعة- خلق هوة بين الجانبين العلمي والثقافي، وشرخًا في الارتباط بالهوية العربية، وتأخرًا كبيرًا عن مواكبة البحث العلمي في بعده العالمي؛ لأن الطالب يتيه في معضلة اللغة وصعوباتها، فيقلّ تحصيله وغالبًا ما ينقطع عن الجامعة في وقت مبكر.

أرقام مقلقة

تأتي كثيرٌ من الدول العربية في المراتبِ الأخيرة حسب مؤشر جودة التعليم (المنتدى الاقتصادي - دافوس ٢٠١٦)، حيث تأتي ستُّ دول عربية خارج التقييم، ويسجل تراجع كبير على مستوى الجودة، سواء تعلق الأمر بمؤشر جودة التعليم الابتدائي حيث تصنف سبع دول عربية في مؤخرة الترتيب (ما بعد المرتبة ٨٥ عالميًّا)، أو تعلق الأمر بالتعليم الجامعي حيث تحتل خمس دول عربية المراتب الأخيرة (المرتبة ١٠٠ فما فوق)، وهو ما يؤكد على خطورة واقع التعليم في العالم العربي.

ووفق تصنيف ٢٠١٧ فإن المنتدى الاقتصادي العالمي يؤكد هذا التراجع في المدرسة العربية انطلاقًا من المعايير العلمية التي يبني عليها تصنيفه، وهي ١٢

التعليم في العالم العربي تعليم تقليدي يركز في مجمله على الآداب والعلوم الإنسانية، ويقوم على بنية نظرية في تدريس العلوم والتقنيات، مما يُبقي التقنية ملكًا للآخر.

معيارًا (المؤسسات، البنية التحتية، بيئة الاقتصاد الكلي، الصحة والتعليم الأساسي، التعليم الجامعي والتدريب، كفاءة أسواق السلع، كفاءة سوق العمل، تطوير سوق المال، الجاهزية التكنولوجية، حجم السوق، تطور الأعمال، الابتكار)، بحيث حلت خمس دول عربية في المراتب الأخيرة أيضًا (المرتبة ١٠٠ فما فوق).

الإنفاق على البحث العلمي

تغيب جل الجامعات العربية عن مصافّ العالميّة، ولعل أبرز أسباب هذا الغياب يعود إلى غياب تشجيع البحث العلمي في العالم العربي؛ فوفق بعض الإحصائيات (موقع إنسايدر مونكي ٢٠١٥)، فإن الدول الأكثر إنفاقًا على البحث والتطوير، هي الدول التي تسعى جدّيًّا إلى التطور والتميز عبر الاستثمار في التعليم، حيث يضع عشر دول في المقدمة، ولا نجد -للأسف- بينها دولة عربية واحدة، ويتعلق الأمر تدريجيًّا، بالولايات المتحدة (٤٨٧ مليار دولار سنويًّا)، الصين (٣٦١ مليار دولار)، اليابان (١٦٠,٦ مليار دولار)، ألمانيا (١٠٥ مليار دولار)، متبوعة بكوريا الجنوبية، الهند، فرنسا، روسيا، إنجلترا، ثم البرازيل.

هذا التصنيف نجده قائمًا اليوم في موسوعة ويكيبيديا ٢٠١٨، بحيث تبقى الدول العربية في مؤخرة الترتيب العالمي، سواء تعلق الأمر بإجمالي النفقة على البحث والتطوير، أو نسبة ما ينفق من الناتج الإجمالي المحلي، إذ تتجاوز كل الدول العربية المرتبة الأربعين، وهو ما يؤكد أن الهوة بين الدول العربية والدول المتقدمة، تظل قائمة مستقبلاً في مستوى البحث العلمي.

المدرسة العربية والرقمية

يمكن القول إن الرقمية اليوم هي معيار التقدم في حد ذاته، وإن استعمال التكنولوجيات الحديثة في التعليم وجعل الرقمي مدخلاً للتعلم والانفتاح على العالم

الحديث، يعتبر معيارًا بارزًا لتحديث المدرسة ونقلها من النظري إلى التطبيقي ومن التقليد إلى التجديد.. ونجد أن جل الدول المتقدمة اعتمدت التكنولوجيات الحديثة مدخلاً للتربية والتعليم. ويمكن في هذا السياق، الاطلاع على النماذج المدرسية الغربية، وبعض دول جنوب شرق آسيا (اليابان، ماليزيا، سنغافورة، كوريا الجنوبية).

أما الدول العربية، وباستثناء بعض دول الخليج التي تعد رائدة في عصرنة التعليم وربطه بالتكنولوجيا، فإن تجربة معظم الدول في تكنولوجيا التعليم تظل باهتة جدًّا من حيث الانفتاح على الرقمية في المدرسة وجعلها وسيلة التعلم والتعليم، ويبقى الارتباط بالرقمية مجرد ترف وتزيين وليس مدخلاً نحو تحديث المدرسة. أما الحديث عن رقمنة البحث العلمي في الجامعة العربية، فيظل تحديًا كبيرًا إذا استثنينا بعض الدول العربية التي تنشر البحوث العلمية الجامعية، وهذا التحدّي يشكل قاطرة التقدم في البحث العلمي الجامعي لمراكمة تجربة عربية هامة في البحث، وخلق حوار علمي بين طلبة العالم العربي في مختلف التخصصات.

أضواء على المستقبل

عندما ننظر إلى المستقبل نتفاءل دائمًا، ومصدر هذا التفاؤل يأتي من كون العصر الذي نعيشه هو عصر الممكنات، لا سيما أن الرقمية والتكنولوجيات الحديثة أتاحت الفرصة أمام جميع الدول للتقدم، بحيث لم تعد المعلومة والتقنية حكرًا على أحد؛ وإنما أصبح بإمكان الدول جميعها تطوير ذاتها، كما أن الاستثمار في التكنولوجيات الحديثة وفي ما تتيحه من إمكانات، يبقى رهينًا بتشجيع التعليم والرفع من مستوى الإنفاق على البحث العلمي.

غير أن قراءة المستقبل من منظور الواقع ينذر بالكارثة، سيما وأن السياسات العربية التربوية في مجملها، تجعل من التعليم وسيلة لإعادة الإنتاج والحفاظ على الواقع الكائن، ولهذا يبدو أن إصلاح التعليم رهين بإعادة النظر في السياسات التربوية، لأن المستقبل، للدول التي تجعل من التعليم بوابة للإصلاح ومدخلاً للرقي والازدهار. ■

(*) مفتش تربوي للتعليم الثانوي / المغرب.

حَيرة

وتَسعى بلا وعيٍ هنالك أو هُدَى
بدربٍ طويلٍ بِتُّ فيه مشرَّدَا
أمامَك مسدودٌ تُغطِّيه ظُلْمةٌ
ونفْسُك في تِيهٍ وخُطواتُها سُدَى
ففي جُبِّ غَيٍّ من هواكَ رميتَها
وللعين نورُ الحقِّ يَسطعُ في المدَى

***

أحمد مصطفى الغر*

الألعاب الرقمية.. إلى أين؟

بالرغم من التطور الكبير الذي شهده مجال البرمجيات والألعاب الإلكترونية طيلة السنوات الأخيرة الماضية، بحيث أصبحت الرسومات داخل الألعاب الرقمية أكثر واقعية، وصارت جاذبة أكثر للأطفال والمراهقين من خلال المحاكاة الحقيقية التي تحدث داخل تلك الألعاب، إلا أن بعضها خطير جدًّا لدرجة أكثر مما نتصور، كما أن بعضها قد يدفع المراهقين إلى الانتحار، مثلما حدث مؤخرًا في أماكن متفرقة من العالم، وللأسف كان من بينها بعض الدول العربية. وبدلاً من أن تكون الألعاب الرقمية كغيرها من الألعاب وسيلة للترفيه والمتعة، تصبح أداة للهلاك والإيذاء.

بعض الألعاب تعتمد على غسل دماغ المراهقين، وإدخالهم في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي، وشحنهم بالأفكار السلبية، مثل الضياع، والكراهية، وبث الإحساس بعدم جدواهم.. مما يدخلهم في حالة من الاكتئاب الذي قد يؤدي إلى دفهم للانتحار.

الألعاب والحالة النفسية

قبل عدة أعوام في الولايات المتحدة الأمريكية، أصاب طفل صغير في التاسعة من عمره طفلة أخرى في الثالثة إصابة حرجة بمسدس، وذكرت الشرطة لاحقًا أنه حين سُئِلَ صغير التاسعة كيف تعلّم استخدام المسدس، قال إنه تعلم ذلك من ألعاب الفيديو التي يلعبها مثل بلاك أوبس.. هذه الجريمة الطفولية كانت جرس إنذار اهتمت به الصحف الأمريكية، وأحدثت ضجة كبيرة في المجتمع الأمريكي، كمؤشر خطير للعنف الذي يكتسبه الأطفال والمراهقين من خلال الألعاب الرقمية.

وخلال السنوات الأخيرة، انتشرت على الشبكة العنكبوتية ألعاب إلكترونية مجانية كثيرة، وبدلاً من أن تبقى في إطارها الطبيعي كوسائل للترفيه والتسلية والمتعة وتمضية الوقت، أصبحت أدوات قاتلة؛ مثل لعبة "الحوت الأزرق" وغيرها من الألعاب الرقمية التي على شاكلتها، والتي ظهرت مؤخرًا واجتاحت صفوف المراهقين حول العالم بسرعة مذهلة، وباتت تنطوي على تهديد مباشر لحياتهم.

لا شك أن لهذه الألعاب تأثيرًا سيئًا على تكوين نفسية الأطفال والمراهقين؛ إذ أن أدمغتهم تشبه "الأسفنج"، فكل ما يراه الطفل يمتصه، وكل ما يسمع به المراهق يسعى لتقليده.. صحيح أن الطفل أو المراهق إذا شاهد مجرمًا فإنه لن يتحول بالضرورة إلى مجرم، لكنه سيتشبع بالأفكار السلبية حتى لو أنه لم يقم بالعمل الإجرامي مباشرة، غير أنه سيتقبل فكرة هذا العمل وسيجد المبررات للأشخاص الآخرين الذين قاموا بالأعمال الإجرامية.

معظم هذه الألعاب يتم نشرها عبْر مواقع التواصل الاجتماعي من خلال حسابات وهمية ومجموعات سرية، حيث لا يتم بيعها أو تحميلها بشكل رسمي من متاجر التطبيقات المعروفة، وإنما يتم نشرها وإرسالها بشكل فردي، مما يمنح شعور لدى اللاعب بأنه متميز، وبأنه قد حظي بشيء لم يحصل عليه غيره من المراهقين. بعض الشركات تكتب تحذيرًا في مفتتح ألعابها العنيفة، محذرة بأن هذه اللعبة ممنوعة عن الأطفال، غير أنه للأسف في ظل عالم إلكتروني كالذي نعيش فيه، فإنه متاح للجميع الحصول عليها، فالقيود المفروضة على السن هي أشبه بعبارة "للكبار فقط"، التي تضعها بعض الشركات السينمائية على أفلامها، فإذا بها تجذب المزيد من المشاهدين للفيلم، من باب أن كل ممنوع مرغوب، خاصة في ظل سهولة الحصول على المحتوى. والأسوأ هنا أنه إذا كان لهذه الألعاب تأثير سلبي على الراشدين، فيمكن أن نتخيل كيف يؤثر على الأطفال وهم في طور التكوين.

وقد خلصت دراسة أمريكية تم نشرها في مجلة الطب السلوكي الحيوي (وهي المجلة الرسمية للرابطة الأمريكية للطب النفسي) إلى أن المراهقين الذين يمارسون الألعاب الرقمية العنيفة لمدة تفوق ثلاث ساعات يوميًا، لديهم ردود أفعال جسدية ونفسية متبلدة عند اللعب بمثل هذه الألعاب، كما أن ممارسة الألعاب العنيفة تحرض على السلوك العدواني والغضب، بالإضافة لمشاكل بالنوم، واضطراب عدد ضربات القلب.

ألعاب قاتلة

• **الحوت الأزرق:** في لعبة "الحوت الأزرق" يتم تكليف

المشارك بعدد من المهام الغريبة التي تصل إلى خمسين مهمة، مثل مشاهدة أفلام الرعب، والاستيقاظ في ساعات الفجر لمشاهدة مقطع فيديو مصحوب بموسيقى غريبة تضع المشارك في حالة نفسية كئيبة، وكذلك من بين المهام، العمل على إيذاء النفس والوقوف على الأسطح العالية، ورسم صورة الحوت على أجسادهم بآلة حادة.. وعقب استنفاد قواهم في نهاية اللعبة، يُطلب منهم الانتحار. اللعبة تستهدف المراهقين بين ١٢ و١٦ عامًا.

والمزعج أنه في حال قرر المراهق الانسحاب من اللعبة، أو عدم تنفيذ أمر الانتحار، يتم تهديده بإيذاء أسرته، ويبتزونه بالمعلومات التي أعطاهم إياها لمحاولة اكتساب الثقة، ما يجعله يستسلم لطلب اللعبة ويقتل نفسه بسبب التهديدات. ويرجع أصل هذه اللعبة إلى شاب روسي يُدعى "فيليب بوديكين"، الذي أُلقيَ القبض عليه لتحريضه نحو ١٦ طالبة على الانتحار بعد مشاركتهن في هذه اللعبة المؤذية التي أطلقها، فيما انتحر أكثر من ١٥٠ شخص حول العالم بسببها، وقد اعترف "بوديكين" بالجرائم، ويقبع حاليًا في السجن. المجموعات الخاصة بهذه اللعبة في صفحات التواصل الاجتماعي قد تم حظرها.

• **لعبة مريم**: من الألعاب القاتلة أيضًا، نجد لعبة "مريم" التي تسببت في انتحار بعض المراهقين والأطفال بسبب تنفيذ طلبات بطلة هذه اللعبة. وتصدرت اللعبة محركات البحث، إذ كان عام ٢٠١٧م حافلاً بالتحذيرات من هذه اللعبة وما تتضمنه من أسئلة، مؤكدين أنها تسعى لجمع أكبر قدر من المعلومات الشخصية عن المستخدمين، وتقوم بربطها مع حسابات التواصل لتحليل هذه البيانات بعد ربطها ببعضها، ومن ثَمَّ يحدث الابتزاز الذي قد يصل بالشخص في النهاية إلى انتحاره.

• **البوكيمون**: ومن الألعاب التي كان لها أثر سيئ أيضًا، لعبة "البوكيمون"، والتي حرص مستخدموها على التواجد بالشوارع والميادين للبحث عن"البوكيمون"، مما عرضهم للمخاطر.

وبعض التقارير أفادت بأن مِثل هذه الألعاب قد يتم استخدامها في الأعمال الجاسوسية بتصوير الأماكن المهمة استراتيجيًا، أو التسبب في الحوادث المرورية، حيث يظهر البوكيمون في أي مكان، وقد يكون بمنتصف طريق سريع.

• **جنيَّة النار**: وكذلك لعبة "جنيّة النار"، التي تشجع الأطفال على اللعب بالنار، حيث توهمهم بتحولهم إلى مخلوقات نارية باستخدام غاز مواقد الطبخ، وتدعوهم إلى التواجد منفردين في الغرفة حتى لا يزول مفعول كلمات سحرية يرددونها، ومن ثم حرق أنفسهم بالغاز ليتحولوا إلى "جنية نار".. وقد تسببت هذه اللعبة الخطيرة في موت العديد من الأطفال حرقًا، أو اختناقًا بالغاز..

• **الشيطان الحزين**: إنها لعبة تشبه "جنيّة النار"، وتم اكتشافها بالصدفة؛ ففي ٢٥ يوليو ٢٠١٥م، أعلن أحد الأشخاص -ويمتلك قناة على موقع "يوتيوب"- بأن رسالة بريد إلكتروني وصلته تحتوي على لعبة من الإنترنت الخفي تسمى "الشيطان الحزين"، وفيها يقوم أصحاب هذه اللعبة بإرسال دعوات خاصة إلى عدد محدود من الأشخاص، حيث يستغلون الأطفال في اللعبة لتحطيم روح الطفولة وبث العنف والخوف في

بعض الألعاب، تزيد الشحنات الكهربائية في الدماغ وتصيب الأعصاب بالتوتر وتُضعف التركيز عند الأطفال، مما يؤدي لحالات صرع وانفعال، ويزداد السلوك العدواني لدى الطفل، وربما يؤدي إلى إيذاء نفسه أو غيره.

إن ممارسة الألعاب العنيفة تحرض على السلوك العدواني والغضب، بالإضافة لمشاكل بالنوم، واضطراب عدد ضربات القلب.

نفوسهم، بإصدار أصوات معينة ونشر صور مرعبة، وغير ذلك من الأمور المخيفة.

• **تحدي تشارلي**: في عام ٢٠١٥م أيضًا انتشرت لعبة "تحدي تشارلي"، والتي ساهم في انتشارها العديد من أطفال المدارس وصغار السن، وتحتوي على تحدي "تشارلي" -وهي شخصية أسطورية ميتة- وتبدأ اللعبة برسم شبكة من المربعات على الأوراق ويتم استخدام أقلام الرصاص، ومن ثم يتحرك القلم دون أن يعي المستخدم بذلك ويشعر أن هناك قوى خارقة موجودة معه، ومع تحرك القلم يشعر المستخدم بالخوف والرعب، هذه اللعبة تسببت في حدوث عدة حالات انتحار بين الأطفال والكثير من الإغماءات بينهم.. وقد تم انتقاد اللعبة من كل الأديان، حيث تقوم على قراءة بعض التعويذات الشيطانية، كما أنها يشوبها التضليل والكذب والافتراء، وأيضًا ترويع وترهيب الأطفال.

بعض هذه الألعاب تعتمد على غسل دماغ المراهقين، وإدخالهم في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي، وشحنهم بالأفكار السلبية، مثل الضياع، والكراهية، وبث الإحساس بعدم جدواهم.. مما يدخلهم في حالة من الاكتئاب الذي قد يؤدي إلى دفعهم للانتحار في النهاية.

القائمون على مثل هذه الألعاب، يمارسون نوعًا من أنواع التنمر الإلكتروني، وهو أخطرها على الأطفال اللاعبين، وأغلبهم في سن المراهقة، كما أن هذه الألعاب، تزيد الشحنات الكهربائية في الدماغ وتصيب الأعصاب بالتوتر وتُضعف التركيز.. وسبب هذا أن الشاشة تتغير كل ١٠ ثواني تقريبًا، مما يؤدي لحالات صرع وانفعال، ويزداد السلوك العدواني لدى الطفل، وربما يؤدي ذلك إلى إيذاء نفسه أو غيره.

ما يمكن التأكيد عليه الآن هو أن الآباء والأمهات تقع عليهم مسؤولية عظيمة حيال الأمر، فهم مطالبون بالتقيد بضوابط عدة عند اقتنائهم الألعاب الإلكترونية لأبنائهم.. فلكل مرحلة عمرية ما يناسبها من هذه الألعاب، كونها قد تسهم في اكتشاف مهارات معينة لديهم وتنميتها. فمن الواجب على الأهل، النظر في التصنيف العمري لأي لعبة إلكترونية يستخدمها الأبناء، والتأكد من سلامة التصنيف لعمر الطفل، مع تحديد أوقات معينة مسموح فيها للطفل باللعب خلال اليوم، ويراجعوا أجهزة الأطفال بشكل دائم ليراقبوا التطبيقات التي يقومون بتحميلها واستخدامها، وتشجيع الطفل على ممارسة أنشطة حركية أخرى بحسب هواياتهم واهتماماتهم وشغفهم، ومشاركة الطفل في اللعب، ومناقشته حول محتوى اللعبة، وعليهم أن يحيطوا أولادهم بالرعاية والاهتمام ومنحهم المزيد من الوقت ليكونوا معهم، ومراقبة حالتهم النفسية وأي متغيرات طارئة على حياتهم، وألا يستهينوا بأي تراجع لحالة أطفالهم النفسية، أو تغيرات في السلوك وطريقة التفكير، وأن يفتحوا نقاشًا يوميًّا مع الأبناء بأسلوب هادئ ومريح، بعيدًا عن التهديد والعقوبات، وذلك حتى يكونوا على اطلاع دائم بحالتهم النفسية، وما يطرأ على حياتهم من مستجدات. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

محمد الكاس*

اختبار القيم

كل واحد منا تعترضه في الحياة تحديات شتى، وعقبات مختلفة تصعد في سلم الصعوبة حتى تبلغ منتهاها، وتتردد في سُلَّمه إلى أن تنزل إلى أسفل درجاتها، لكن يبقى أشد اختبار يتعرض له الإنسان اختبار قيمه؛ أن يحترم قِيَمَه التي تحكمه عندما تتعارض مع مصالحه، وأن لا يخالفها ولو كلفه ذلك الضياع والخسران الظاهري، وأن لا يتمرد عليها رغم كثرة الإغراءات، وسلطة الشهوات، وجاذبية المذاهب والتيارات.

لكل واحد منا رؤية خاصة به عن الكون والحياة والمصير، وعلى مقياس تلك الرؤية يفسر سائر الأمور التي تعترضه، غير أن منا من استطاع أن يعبر عن تلك الرؤية، ومنا من عجز عن ذلك، والعجز لا يعني أبدًا أنه تائه بين الرؤى ولا رؤية له، بل هي مواهب تفرقت، فمنهم من يعبر عنها بالكتابة، ومنهم من يعبر عنها بالرسم، وهلمّ جرًّا.

التحدي الأصعب هو أن تنسجم دائمًا في تصرفاتك وأفعالك وتعاملاتك، مع قيمك التي تحكمك وتوجهك.. لا تقل "نعم" في الوقت الذي يجب أن تقول "لا" لقضاء مصالح فانية، وأن لا تقول "لا" في الوقت التي تفرض عليك قيمك أن تقول "نعم" رغم أن ذلك قد لا ينسجم مع مصالحك، أو تُفقدك حظوة معينة، أو تعرضك للإقصاء والتجاهل والإهمال.

لقد نجح في هذا الاختبار كثيرون، فها هو الفيلسوف اليوناني العظيم "سقراط" الذي كان يخاطب شباب أثينا بقيم جديدة، بقي ثابتًا عليها وهو يتعرض للعقاب ظلمًا وعدوانًا، اتّهم "بامتناعه عن عبادة آلهة المدينة، وباختلاق بدع دينية، وبإفساد شباب أثينا -وتبعًا لخطورة اتهاماتهم طالبوا بإعدامه" كما يقول آلان دو بوتون.

تصرف سقراط ببسالة أسطورية، وبرغم إتاحة

فرصة له للتبرؤ من فلسفته في المحكمة، اختار الوقوف مع ما كان يعلم أنه صحيح لا مع ما كان يعلم أنه سيكون سائدًا. وبحسب توصيف أفلاطون، كان قد خاطب المحكمة بجرأة: "طالما أنني أتنفس وأملك القوة، لن أتوقف عن ممارسة الفلسفة وإسداء النصح لكم، وتوضيح الحقيقة لكل من أصادفه.. وبذلك أيها السادة.. سواء برَّأتموني أم لا، أنتم مدركون أنني لن أغيّر سلوكي حتى لو مت مئة مرة".

انسجم مع قيمه التي عاش عليها، ومع المبادئ التي دعا إليها طيلة حياته وعرّض نفسه للموت، رغم أنه كان من الممكن أن ينجو بنفسه بمساعدة أصدقائه، إما بدفع رشوة وإما بمساعدته على الهرب، أو التراجع عن ما كان يؤمن به.

إن سقراط هنا كما يقول عزت قرني: "يمثل رجل المبدأ والشرف، رجل الاتساق مع النفس فكرًا ماضيًا، وهو اتساق يصل به إلى حد التضحية. وأرجع سبب عدم قبول عرض أصدقائه أنه لا يجب رد الظلم بالظلم.. وهو ملتزم أيضًا بقوانين المدينة، وعليه أن يطيعها حتى النهاية".

وجد نفسه في النهاية بين خيارين أحلاهما مر؛ أن ينسجم مع نفسه إرضاء لقيمه ومبادئه التي ترعرع فيها ودعا إليها ودافع عنها، ثم يعرض نفسه للموت بالإعدام شاربًا للسم، أو يحدث شرخًا بين قيمه ومبادئه وما يؤمن به وينجو بنفسه.. إنه ليس كأي إنسان بسهولة ينزع عنه لباس القيم والقناعات المرتكزة في وجدانه، ويرتدي ثوب المصلحة وينجو بنفسه، لقد نجح في الاختبار وخُلّد سقراط في دنيا الناس.

وعلى هذا الدرب -يعني انسجام الإنسان مع قيمه رغم التحديات والعقوبات- نجد الصحابي الجليل بلال بن رباح ﷺ، ثبت وهو يتعرض لأقسى أنواع العذاب، لقد كان عبدًا لأمية بن خلف، ولما علم بإسلامه قام بإهانته وتعذيبه.. ذكر أبو نُعيم في الحِلْية عن ابن إسحاق: كان أمية يُخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزّى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَد أحد".

إنها مجرد كلمات قصيرة بسيطة، ينطقها فينجو بنفسه من العذاب الذي يتعرض له، "كفرت بمحمد وآمنت باللات والعُزَّى"، ولو نطق بها فإنه وإن نجى من العقاب البدني، سيتعرض لعقاب قيمي ينبعث من روحه ومن وجدانه ومن ضميره.. طغى صوت القيم الروحية على ما هو مادي، حتى إنه يعلن ثباته على قيمه "أحد أحد"، لا اللات والعزى، ولا غيرها.

صمت صوت الغريزة ونطق صوت الروح، كما يقول مالك بن نبي، فبلال "حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قوله "أحد أحد"، إذ من الواضح أن هذه القولة لا تمثل صيحة الغريزة. فصوت الغريزة قد صمت، ولكنه لا يمكن أن يكون قد ألغي بواسطة التعذيب.. إنها صيحة الروح التي تحررت من أسر الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيًا في ذاتية بلال بن رباح ﷺ.

عندما تستحكم القيم في الوجدان، يقوى الإنسان على تحمل كل عذاب، وكل عقاب يهون.. إن الألم يكاد يزهق روح بلال ﷺ لكنه يعلن صراحة "أحد أحد" حتى ينسجم باطنه مع ظاهره، إنه لم ينطق بما يهدم قيمه التي تغذيها عقيدته من باب ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾(النحل:١٠٦)، إنها تمنعه من ذلك، ونجح في امتحان قيمه حتى بلغ الجنة. جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: "دخلت الجنة فسمعت فيها خشفة بين يدي فقلت: ما هذا؟" قال: بلال".

عش أنت ومت وأنت كذلك، بقيمك بمبادئك بِمَواقفك بعفويتك.. ولا تكترث لمن يلومك أو يتهمك بأشياء لا قِبل لك بها، ودع الأيام تُبدع في تبيان مَن الصادق ومَن الكاذب، فقد قررها التنزيل كقاعدة: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(الرعد:١٧).

لا تكن نسخة مشوهة من الآخرين، كن استثنائيًا، "كُن أنت ولا تكُن غيرك"، إن نجحت في هذا التحدي فقد فزت الفوز العظيم، وإن خسرت هذا الرهان، فقد خسرت الخسران المبين وإن بدا لك في الظاهر أنك فائز. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

د. أيهان يلماز*

العالم بعيون النحل

إن الدنيا مليئة بالموجات الضوئية، سواء التي نراها بأعيننا المجردة، أو التي لا تستطيع أعيننا رؤيتها، وثمة مصطلح "الضوء المرئي" ويقصد منه الضوء الذي يستطيع الإنسان أن يلحظه بنظره، إلا أن هناك أنواعًا عديدة من الحيوانات تملك القدرة على رؤية أنواع الموجات المتعددة للضوء، وهكذا تكون بعض أنواع الموجات الضوئية التي لا يراها الإنسان تدركها بعض الحيوانات بصورة تامة. وهذا من أعجب

الأمور؛ فعلى الرغم من أن جميع الكائنات الأرضية تعيش على نفس الكوكب، إلا أن كل نوع يرى هذا العالم الذي نعيش فيه بصورة مختلفة خاصة به.

فبحسب طول الموجة وترددها والتقاط أعيننا لها، يقوم المخ مع ما فيه من أجهزة حساسة للضوء بترجمتها إلى لون معين من الألوان، ولكن خارج حيز الترددات الموجية للضوء، والتي نراها بما تحتويه من مختلف الألوان البديعة. فهناك موجات أخرى من الترددات الموجية للضوء نعرفها نظريًّا فقط وتراها بعض الكائنات، يطلق عليها اسم "الضوء المستقطب"؛ وهو ضوء الشمس المنعكس على الأسطح اللامعة للأرض، فعندما تشتد حرارة الشمس على البحار أو على أسفلت الطرق السريعة، فهذا الضوء اللامع الذي تراه أعيننا ويحدث بسببه حالة من عدم وضوح الرؤية وهذا هو "الضوء المستقطب". ومن أجل رؤية واضحة نستخدم نظارات الشمس أثناء السفر على الطرق السريعة، وفي البحر، ولكن يظل القسم الذي نراه من الضوء المستقطب، يمثل نسبة ضئيلة للغاية مما هو عليه وهو ما يعد نعمة؛ فلو أننا نحن البشر استطعنا رؤية الضوء المستقطب، ما كان بمقدورنا تمييز الكائنات من حولنا.

وكما أن عين الإنسان لا تستطيع رؤية موجات الراديو أو موجات التلفزيون، فكذلك لا تستطيع رؤية الأمواج فوق البنفسجية، بينما الحقيقة أنه كما لدينا اللون الأخضر واللون الأصفر، ففي الموجات فوق البنفسجية ألوان عدة، ولكننا لا نستطيع تسميتها لعدم رؤيتنا لها.

هناك العديد من الكائنات تمتلك ألوانًا فوق البنفسجية، فلو أننا استطعنا رؤية الأمواج فوق البنفسجية اللامعة، لتعذر علينا التمييز بين الألوان الأخرى.. فمن حكمة الخالق منحه لنا قدرة وقابلية على تمييز الألوان الزاهية والمزركشة البديعة، وهو ما مكّننا من إنتاج أعمال فنية غاية في الإبداع، وأكسبنا موهبة على تذوق الجمال والتمتع به.

وبحسب الدراسات التي أجريت على موهبة

الحيوانات على الرؤية، واستقبال الأنواع المختلفة من الموجات الضوئية، تَبين أن هناك نوعًا من الحيوانات يملك نفس المقدرة على تمييز الألوان مثلما نراها. ولكن المؤكد أن لكل الكائنات حدًّا معينًا من رؤية الألوان يزيد أو ينقص، فعلى سبيل المثال، النحل وُهب قدرة على تمييز ثلاثة ألوان مثلنا نحن البشر تمامًا؛ حيث شبكية أعيننا تستطيع تمييز أمواج الأحمر والأخضر والأزرق من الألوان، كما أن ثلاثة أنواع من الخلايا المخروطية تمكّننا من رؤية باقي الألوان التي هي عبارة عن نسب مختلفة من تداخل تلك الألوان الثلاثة.

أما النحل، فنظام الرؤية الذي تم تزويدها به مختلف عنا، حيث الحجرات الكائنة في أعينها، تجعلها ترى الألوان فوق البنفسجية بدلاً من الأحمر والأخضر والأزرق. ولأن الموجات فوق البنفسجية تضرّ أعيننا، فقد زودنا الخالق بنظام تصفية للموجات في الجزء

hiragate.com

الخارجي من الشبكية، بينما النحل يستطيع رؤية الموجات فوق البنفسجية بألوانها المختلفة، وهذه القابلية مرتبطة بمهمتها في الحياة، وبقدرتها على التكيف مع ظروف معيشتها.

فمن خلال الرؤية فوق البنفسجية المزودة بها تستطيع النحل تحديد الزهور والخلايا التي يوجد بها العسل، كما تقوم من خلال ذلك بالكشف عن الموقع والاتجاه؛ فالنحل تعرف موقعها، وتستطيع تحديد الجهة التي ستنطلق إليها من خلال تحديد موقع الشمس في تلك اللحظة.

وفي التجارب والأبحاث التي أجريت على النحل، وُجد أنه لو قمنا باستبدال ضوء السماء بضوء آخر، ترتبك النحل ولا تستطيع الوصول إلى خليتها، ولكن في الطبيعة تستطيع النحل من خلال الرؤية فوق البنفسجية، الوصول إلى رحيق الأزهار، وتحديد موقع

لو قمنا باستبدال ضوء السماء بضوء آخر، ترتبك النحل ولا تستطيع الوصول إلى خليتها، ولكن في الطبيعة تستطيع النحل من خلال الرؤية فوق البنفسجية، الوصول إلى رحيق الأزهار، وتحديد موقع الشمس من مكانها حتى ولو كان الجو غائمًا.

الشمس من مكانها حتى ولو كان الجو غائمًا. وكما ذكرنا آنفًا، أن القليل من رؤية الأمواج البنفسجية عند الإنسان يؤدي إلى عدم وضوح الرؤية، إلا أن الخالق الحكيم زود أعين النحل في قسميها الخلفي والعلوي، بحجرات تمكنها من الرؤية الواضحة لهذه الموجات.

إن النحل تتمتع بنظام رؤية معقد، فلديها عيون تشبه الخلية، حيث تتكون هذه العيون من عيون صغيرة عددها ٨٠٠٠ خلية سداسية الشكل مصفوفة بدقة عجيبة بجوار بعضها البعض، ولكل واحدة من هذه العيون الصغيرة عدسة خاصة بها، وخلايا الرؤية كل واحدة منها محاطة بكرستالة مخروطية الشكل للحماية. وهذا النظام العجيب الذي تمتلكه النحل، يمكّنها من رؤية أي حركة تحدث في محيطها ولو كانت حركة طفيفة، بينما عين الإنسان ترى في اتجاه واحد وبزاوية ١٨٠ درجة من محيطه فقط.

إن النحل تستطيع أن ترى بزاوية ٣٦٠ درجة من محيطها، مما يمكّنها من تجنب المخاطر التي قد تتعرض لها. والعجيب أن النحل ترى بوضوح المتحرك أكثر من الساكن، لذلك تستطيع أن تميز بسهولة الزهور التي تهزها الرياح أكثر من الزهور الساكنة، ولنفس السبب تهجم على الإنسان الذي يحرك يده بعنف أو الذي يتحرك؛ حيث تراه بوضوح أكثر من الإنسان الساكن في مكانه.

إن نظام الرؤية عند الإنسان يتكون من قرنية وعدسة واحدة، وهو ما يجعل الرؤية عند الإنسان على نقطة معينة أكثر جلاء ونقاء ووضوحًا، يستطيع من خلالها تمييز النقوش الدقيقة في الزهور وتفاصيل خطوطها بوضوح، بينما نظام الرؤية عند النحل فيعتمد على

hiragate.com

عيون النحل تشبه الخلية، حيث تتكون من عيون صغيرة عددها ٨٠٠٠ خلية سداسية الشكل مصفوفة بدقة عجيبة بجوار بعضها البعض، ولكل واحدة من هذه العيون الصغيرة عدسة خاصة بها، كما أن كل واحدة من خلايا الرؤية محاطة بكرستالة مخروطية الشكل للحماية.

وحدات منفصلة عن بعضها البعض، وهو ما يعد ضروريًّا لاستمرارية حياة النحل، فهي تستطيع من خلال تلك الرؤية تغطية أي حركة على نطاق واسع، ولكن تلك الرؤية ضبابية وأقل وضوحًا.

وإذا قمنا بمقارنة الرؤية بين الإنسان والنحل، نجد أن نسبة الوضوح هي ستين لواحد مقارنة بالإنسان، وبتعبير آخر فإن أي شيء نستطيع أن نراه بوضوح من مسافة ٢٠ م، لا تستطيع النحل أن تراه بوضوح إلا إذا اقتربت منه لمسافة ٣٠ سم. وهكذا، فقد وهب الصانع النحل عينًا تستطيع قياس نسبة العسل الموجود في الزهور. إذن، الدنيا في عيون النحل، عبارة عن خلايا عسل، وأكبر تمثيل لذلك هو أن الإنسان إذا نظر عن قرب ومن خلف زجاج متجمد، لن يرى إلا قطع صغيرة ونظرة ضبابية.

كما توجد في عيون النحل خاصية عجيبة ومدهشة زودها بها الصانع الحكيم، وهي تتمثل في وجود شعيرات دقيقة وسميكة تحيط بالعيون، ما يساعدها على معرفة اتجاه الرياح، وكذلك فإن أي تغير في الهواء حتى ولو كانت نسمة بسيطة، تستطيع النحل أن تحدد مكانه من خلالها بسهولة ويسر عن طريق الإشارات العصبية التي ترسلها تلك الشعيرات مباشرة إلى المخ لدى النحل.

إن الضوء الذي هو أحد تجليات الرحمة الإلهية، يعدّ من الحاجات الضرورية لكل الكائنات الحية، ولكن احتياج كل كائن يختلف عن الآخر؛ فمثلاً، الدودة التي تعيش تحت التراب، مستقبلات الضوء الموجودة في جلدها، تعطيها القدرة على التمييز بين النور والظلام فقط، ولا تحتاج إلى عيون لتقوم بعملية التمييز، بينما عيون النسر تتميز بالحدة والدقة، بحيث تستطيع التمييز من مسافة كيلومترين إذا كان الأرنب ميت أم نائم.. وكذلك الحيوانات البحرية وهبها الخالق عيونًا تتناسب مع نسبة الضوء التي تصل إلى العمق الذي تعيش فيه.. مما يبيّن لنا بجلاء أن لكل الكائنات علاقة خاصة مع الشمس. ■

(*) باحث وأكاديمي تركي. الترجمة عن التركية: صالح القاضي.

د. جمال بن فضل الحوشبي*

سفينة الخدمة

مَخَرتْ عُباب بحرٍ هائج مُحمّلةً بما ينفع الناس.. ثم اضطربتْ الأمواج من حولها وأظلمت السماء.. تساقط منها البعض وظلّ البحارة فيها ثابتين.. يُصلحون الأعطال، ويُفرغون الزائد من الأحمال، ويوجّهون الدَّفّة صوب شاطئ الأمل الذي يلوح من بعيد..

على قَدَرٍ تجـري وليس بضـائرٍ ... إذا مـا أراد اللهُ مـا الموجُ فـاعلُ
تَلاطَـم فيها الماءُ من كل جانبٍ ... وأغمَـرها دفقٌ مـن البحر وابلُ
فسارت كأنّ الفيض قطرٌ من النَّدى ... وشقَّتْ عُباب الموت والخطبُ هائلُ
تهادَت بها الأمواجُ والليلُ جاثمٌ ... ومادَت ليُلقي الرَّحْلَ في القاعِ جاهلُ
إلى أين والإقدامُ يُدني من الرَّدى؟ ... ومن أين والماضي عَفتْه الأوائلُ[1]؟
فـما ثَـمّ إلا واجـمٌ طـال حُـزْنُـه ... وغَمْرٌ ربيبُ الهُجر في القومِ عاذلُ
لهُ في سوادِ الليل ألفُ مكيدةٍ ... وعند شروقِ الشمس للوصل باذلُ
لَحَى اللهُ دنيا لا تـقـوم لصـادقٍ ... ويصدُق فيها الكاذبون الأراذلُ

* * *

لِيَهْنِكَ (فتحَ الله) عِلمٌ وصُحبةٌ ... وقلبٌ على أهل الظُلامة واجلُ
فما زلقتْ رجلٌ، ولا زاغ ناظرٌ ... وما طاش حِلمٌ والخطوبُ زلازلُ
بذلتَ لهم نُصحًا، وما زلتَ واعظًا ... وقُلتَ لهم: كُفّوا.. فما ثَمّ عاقلُ
صبرتَ فظنّوا الصبرَ عجزًا وتُهمة ... وسامحتَ.. والمغرورُ للظلمِ فاعلُ
وترمي لهم حبلَ النجاةِ برحمةٍ ... فيَفْتِلُهُ للبأسِ والموتِ فاتِلُ
يُعادُونَهُ.. والصفحُ مِلْءُ إهابِهِ ... ويرميه بالإرهابِ والمكرِ جاهلُ
يَحيكونَ وشيًا في الظلام غِلالةً[2] ... فتُسفِر عنه الشمسُ والخيطُ ذابلُ
ويبنون قصرًا من سوادِ ظُنونهم ... فيغـدو سرابًا في الأقافرِ عاطلُ

* * *

أيا مَن سقتْه النفسُ من كأسِ طبْعِها ... تبصَّر فكأسُ الموتِ في الخَلقِ نازلُ
وخفِّف ثقيلَ الوزرِ ما دُمتَ قادرًا ... وهوّن عليكَ الخَطبَ فالظلمُ زائلُ
سترسو سَفينُ الحقِّ في كل شاطئٍ ... ويُسرع فيها كلُّ حافٍ وناعلُ
وحسبي من الإحسانِ غُربةُ أهلِهِ ... وقلةُ من يُعطي النّدى وهو سائلُ
"وإني لأدعـو اللهَ حتى كـأنـني ... أرى بجميل الظنّ ما اللهُ فاعلُ"

---

[1] عفا الشيء: زال وامّحى.

[2] الغِلالة: الثوب الرقيق الذي لا يُغطي صاحبه.

* مدير تحرير مجلة مكة، والمشرف على مركز رؤية الثقافي بمكة / السعودية.

صبغة الله الهدوي*

"هذا والدي"

سيرة حب خالدة بين والد وولده

يا بني لو علمت أن الطريق إلى مرضاة الله ﷻ يكمن في كسح القمامة لجعلت منك زبالة، ولكني نظرت فرأيت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم، لذلك أرجو أن تعاهدني أن تسير في هذا الطريق مخلصًا للعلم، وأن لا تجعل منه مطية للوظيفة، وأن لا تجعل منه آلات للرزق، هل تعدني؟".

كان هذا هو الموعد والوعد الذي تم إبرامه بين والد وولد، وتفرعت منه إرهاصات لطلوع صفحة جديدة في العالم الإسلامي، إذ تولد منه عالم كبير سار على مطمار أبيه إلى آخر أنفاسه التي اغتاله المتربّصون في مسجد الإيمان وهو يعلّم الناس آي القرآن وينصحهم مبادئ السلام، ويثلج قلوبهم، ويثبت أقدامهم في ميدان الصبر.. ولم تزل آثارهما تغذي أرواح الأبوة والبنوة.

إن كانت الأم مدرسة وجامعة فالأب عميدها وناظرها ومحاضرها، وعنده مقاليد الأدب التي تزود الأبناء للتأقلم مع الظروف والتعايش مع الانكسارات. وهناك آباء استشرفوا على مستقبل أنجالهم، وتفرسوا عن الغد المنتصر الذي يعتنقه أبناؤهم من بعد موتهم، وتنبأوا عن الآفاق التي تنتظر سواعد أبنائهم، ثم رسموا لهم طريقًا واضحًا؛ حتى يضيئوا الدروب بومضات توارثوا عليها من أصلابهم، هدفًا وشوقًا إلى تخليد ذكرياتهم ورفع شأنهم على مدى الأجيال.. "وكم أب قد علا بابنٍ ذوي شرف ** كما علا برسول الله عدنان"، دائمًا كان الابن سر أبيه المحتكر.

فمن تلك الآباء والأبناء الشيخ ملاّ "رمضان البوطي" وابنه الفريد "سعيد رمضان البوطي" الذي ارتقى شهيدًا في مسجد الإيمان. ونتعجب من عمق التأثير الذي ألقى والد على ولد، إذ يستحضر النجل البوطي معالم أبيه في كل خطوة يخطوها في سبيل العلم، ويجتر نصيحته لئلا يهبط بطلب العلوم الشرعية إلى مستوى الانحراف. ونقف على تلك اللحظات الرائعة، مرددين وصايا لقمان الحكيم لابنه، ومستلهمين من تلك العبر التي نقشت في جدران التاريخ خالدة عصية على الانمحاق، وفي حياتهما دروس طويلة لكي نجرب ونطبق في حياة الوالد والولد، وإشعاعات ذات مد طويل تنوّر دروب حياة مريد ومرشد.. وقد سجل ملاّ رمضان البوطي بصمة هائلة في قيادة دفتي سعيد رمضان البوطي من الطفولة إلى استشهاده الذي أصبح أقوى دليل لثباته وتصلبه في مبادئه التي احتضنت من والده الكريم الذي أبى أن يخضع أمام العراقيل التي تكدست وتضخمت في حياته. ولم يك الوالد البوطي مجرد أستاذ يؤدب ويهذب، بل كان رجلاً علّم ابنه عمق التقلبات الحياتية، ومدى تأثير الأزمات التي تصطدم سفائن الأمل، وظل يكرر ويلح على ابنه أن يكون على موعد ووعد مع الحق والصدق، وأن لا يتخبط في طريق الحياة، ولا ينبهر في تيارات الفكر التي تكاد تكتسح التراث والمآثر.. وأوحى من خلال حياته أن اكتساب العلم ليس هو مجرد حرفة تحترف ولا هو مهنة تتقلد، بل

إن سيكولوجية التربية ليست دائمًا بإفراط المحبة، ولا بإكثار التحفيز، ولا بإراقة نفايات من الشتم واللوم، بل بتنوير الحياة على أساس الحب والنصيحة؛ لأن الأبناء جواهر ودرر، فلا بد للآباء أن يكونوا صواغين بدلا من أن يكونوا حدادين ودباغين.

تتبدل الحلل وتتحول العلل، لكن تبقى ذاتية العلم على حاله صامدة، إذ كان فلاحًا ناجحًا يعيش مع حقوله ومزارعه، ويقضي مع باقي يومه تعلمًا وتعليمًا.

صور من كتاب هذا والدي

فللسير الذاتية والتراجم أثر كبير في تخليد حياة العلماء، إذ إنها تنقذ كرامتهم وتاريخهم الأسنى من تلافيف النسيان، وتجعل لهم لسان صدق في الآخرين.. والحظ الكبير الذي يسعد به الأحياء بعد رحيلهم من مسرح الوجود، إنما هو تواجد مؤرخ وكاتب يلتقط صورتهم ويلتفت إلى سيرتهم بعيدًا عن الإطراء ونقد غير مبرر. فإن الطاقة التي نستلهم من النماذج الصالحة لا تسترخص ولا تستصغر، لأن التماثل أو شبه التماثل الذي ربما نجده من بين طيات السير والتراجم فقط، يكفي لإنجاب بيضات الأمل والفرح في المستقبل، لأن من يحدو نحو الرقي والسمو، لا بد من اكتشاف قدوة توجهه إليه.

هذا الكتاب إنما هو عبارة واقعية عن المشاعر والوجدانات التي انبثقت في خواطر الولد البوطي عن والده الحنون، بعيدًا عن التضخيم والتفخيم، والدوران المتطوح في الأخيلة المصطنعة الجوفاء، حتى إنه ما أورد شيئًا من الآراء الفقهية التي تكشف عن مدى ملكة والده الفقهية، بل اقتنع بإضاءات فجر صادق على علمه الغزير، ودقة معلوماته، وحياته التي تدور بين ذوق التصوف وشوق الفناء، وعلى حد تعبيره "وليعلم كل من قرأ أو سيقرأ هذا الكتاب أنني لم أنطلق إلى ترجمة حياة والدي والحديث عن حاله وشؤونه من قرار قداسة أضفيها عليه، أو من مناقب أعتز بها وألفت النظر إليها، وإنما أنا مؤرخ ومعلن عن حقيقة ومترجم لإنسان".

hiragate.com

ويأتي هذا الكتاب -نموذج تحقيق وتدقيق- بعد طول تفكر وإمعان نظر في إخراجه، حيث تردد الكاتب في تأليفه وتنويره، لكنه امتنع واعتزم على أن يسطر عن والده في زمان يقبل ذوي الموتى على تضخيم مآثر موتاهم ويتفننون في المبالغة وصناعة الأسطورة، حتى يبنون من أنقاضهم معيشة ولقمة لجيل بعد جيل.

لأن الكاتب لم يزل يسعى في تنقيح نيته، وفي تصفيته من جميع الأدران والمخاوف التي ألمت به يوم أن نوى لإخراج هذا الكتاب، إذ تهاطل عليه جحافل من أصدقاء والده يلحون عليه أن يضيف كذا وكذا، وأن يوشحه بكذا وكذا، وكأنهم يتيممون منه لمسة من القداسة، أو رشفة من ظاهرة الجاه الذي خلفته هالة البوطي، مع أن الوالد البوطي يقترح على ابنه ويأمره أن لا يتحدث الناس عن خفايا شؤونه وخصوصيات أحواله مع الله، ويصر عليه أن لا يخوض فيما لا يعنيه.

فالنقطة المهمة التي نكتشفها من حياة ملاّ رمضان البوطي، هي ميوله ورجحانه إلى التصوف. لقد عد الولد البوطي مناسبات شتى مما تدل على صوفيته طبعًا؛ لقد كان ملاّ رمضان البوطي وليًّا من أولياء الله، ينتابه الجذب والفناء، أحب التبتل والتحنث والخلوات.. بشره الله برؤيا صالحة تحققت في حياته، ولم يزل يسير مع الأذكار والأوراد، ويتردد إلى مجال العلماء والصالحين، يجالسهم ويؤاكلهم، لكنه رفض كل التيارات المنخورة التي غزت أصالة التصوف وقاومها خطابًا وكتابًا، وتمشى كرجل يحيط به أسرار لا يعرفها إلا الله، وارتضى أن لا تباح بها ولا يتحدث الناس عنها.. وحتى في أيام دراسته كان حريصًا على تلاوة القرآن، وحفظ الأذكار والأوراد، ونوافل العبادات، وقيام الليل والرقائق، بينما ظل أقرانه يحفظون المتون ويعدون الدروس. ووصى ابنه ليستلهم من معنيات الآية ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾(البقرة:٢٨٢). وفي نهاية السبعينات من عمره، انكمش عن الظهور في الحفلات والاجتماعات واللقاءات التي كان يدعى إليها، وأصبح الرجل ميّالاً إلى العزلة عن الناس مع توافر ملكته وقوة ذهنه، ولم يك ميوله إلى العزلة نتيجة خوضه أواخر العمر، بل كان مرحلة من مراحل حياته المهمة.

لقد وضع الوالد البوطي تربية الأولاد نصب عينه، ولم يترك مجالاً إلا وخاض وركض إلى أن جعل بيته مدرسة نموذجية في المستوى الأعلى. واختتم الابن البوطي كتابه بسرد وصايا وإرشادات من أبيه، منسوجة من التصوف وتزكية القلب، مرفقة برسائل الأحاديث والآيات:

"أيها الولد أوصيك بالتفكر في نفسك بأنك محدث، خلقت من ماء مهين بواسطة الوالدين، كما خُلقا أيضًا كذلك، وهلمّ جرًّا إلى أبناء آدم"، وسرد فيها آيات وعبر ومواعظ تأطرت بالتفكير الذاتي ومعرفة هويتها، إذ يستدل بالحديث الصحيح الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، "وعدّ نفسك من أصحاب القبور".

ثم توجه إلى ابنه مباشرًا قائلاً: "فإذا أقبلت على الله صدقًا ينبغي أولاً أن تتعلم العلم، فإنه روي ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه. وأما العلوم التي أوصيك بالبعد عنها فثلاثة، حرام، مكروه، ومباح، أما الأول فالفلسلفة والسحر والشعبذة والرمل وعلوم الطبائعيين، وأما الثاني فكأشعار المولدين المشتملة على الغزلة والبطالة، وأما الثالث فكالعلوم التي لا سخف فيها ولا شيء مما يكره أو ينشط لشر أو لخير".

وعندما نطوي صفحات كتاب "هذا والدي"، نتنفس طويلاً، ونتعجب من شدة العلاقة التي تجسرت وتأصرت بين والد وولد، بين شيخ ومريد، ونشعر مدى تأثيرات الأبوة في نشأة الأولاد وفي تخطيط مستقبلهم. فإن الآباء التي تلازم العصا والسوط بدلا من النصائح الأخاذة والدرة العمرية، تفشل في إنجاب تراث يتخلد خلاله آثاره ومآثره. وإن سيكولوجية التربية ليست دائمًا بإفراط المحبة، ولا بإكثار التحفيز، ولا بإراقة نفايات من الشتم واللوم، بل بتنوير الحياة على أساس الحب والنصيحة؛ لأن الأبناء جواهر ودرر، فلا بد للآباء أن يكونوا صواغين بدلا من أن يكونوا حدادين ودباغين. ■

(*) كاتب وباحث من الهند.

hiragate.com

hiragate.com

نهى الفخراني*

الحفاظ على القرآن لا يكون بالاستماع إليه أو قراءته فقط، بل بإحياء معانيه في أرجاء المجتمع والحيلولة دون ذبول تلك المعاني أو شحوبها في القلوب، وبذل كل ما في الوسع لجعله "الكتاب الأوحد" على مستوى العالم.

الموازين

إذا سألك طفلك:

أين الله؟

من منّا نحن الآباء والأمهات لا يذكر أول كلمة قد نطقها طفله؟ وكم كنا نسعد ونضحك على تلعثمهم في الكلام.. وسرعان ما يكبرون ويضعون الكلمة بجوار الأخرى، ليثبتوا لنا تطورهم وقدرتهم على تكوين جملة مفهومة أو حتى غير مفهومة.. بعدها يبدأ يسألك عما يدور في خلده، لتجيبه عن أمر بات غامضًا بالنسبة له.

يبدأ الطفل بالأسئلة في نهاية سن الثانية حتى سن الخامسة، وتكون تلك الأسئلة ناجمة عن عدة دوافع كما يؤكد خبراء التربية، منها خوف الطفل ورغبته بالاطمئنان،

أو رغبته بالمعرفة، أو لجذب انتباه والديه، أو حتى لسعادته أنه استطاع أن يتقن الكلام والفهم.. وغيرها من الأسباب.

وقد يُفاجأ الأبوان بسؤال محرج، أو استفسار يظنانه كبيرًا عن عقلية صغيرهم مطروح عليهما وهم مطالبان بالرد عليه.. ولعل أبرز هذه الأسئلة وأهمها هي الأسئلة العقائدية، مثل أين الله؟ ولماذا لا أراه؟ ومن خلق الله؟

وقد لا يجدان الإجابة المناسبة للرد عليه، فيقومان إما بإسكاته أو إعطائه معلومات خاطئة، ويطلبان من الطفل عدم تكرارها، وقتها قد يشعر الطفل بعدم الثقة بوالديه إذا ما اكتشف أنهما يكذبان عليه ويعطيانه معلومات خاطئة.. وقد يكون عرضة للقلق أو الخجل وزعزعة ثقته بنفسه، ومن ثم فإن كل تلك الأساليب بلا شك خاطئة.

ضروري قبل الرد على الأسئلة

قبل عرض بعض من نماذج الردود العملية للأسئلة المحرجة التي قد يطرحها الطفل على والديه، والتي قامت بتنفيذها بعض الأمهات، يجب أولاً عرض الطرق المناسبة للإجابة على أسئلة الأطفال.

إن الرد على تساؤلات الأطفال، يجب أن يتصف بالصحة والدقة والوضوح والإقناع، فلا نقدم للطفل إجابة خاطئة أو غامضة أو غير مقنعة، وهذا لا يعني أن نطيل في الإجابة، بل نقدمها بشكل مناسب بين الإيجاز والإطالة، ولا بد أن تلائم عمر الطفل؛ فالإجابة على أسئلة ابن السادسة، يجب أن تكون أقصر من الإجابة على أسئلة ابن العاشرة وهكذا، هذا في الأسئلة التي يحتاج الجواب فيها إلى إفاضة وتوسع وتقديم أدلة وبراهين كما في الأسئلة عن الغيبيات، والأسئلة الحرجة، أما بعض الأسئلة فتكون الإجابة عليها محدودة وثابتة، حيث تقدم لأعمار الأطفال جميعها واحدة، كسؤال: كم عدد ركعات الفرض في صلاة الظهر؟ فالإجابة بوضوح: أربع ركعات.

وقد أصبح من الضروري مواكبة روح العصر، واستخدام خامات من البيئة في أدوات الطفل وألعابه، بحيث يتيح له الفهم والتعلم بشكل عملي. فالتجارب العملية تعلق بسرعة في أذهان الأطفال وتقنعهم بشكل أسرع.

وعلى الأم خاصة -لكثرة تحاورها مع صغيرها- أن تكون حريصة على إفهام طفلها مبكرًا أن الله هو من خلقه وأن الله يحب الأطفال كثيرًا وأنه أعطاه "بابا وماما"، وأعطاه أيضًا الكثير من النعم.. ولا بد أن يسمع ويردد كلمات، مثل "الحمد لله" بعد تناول الطعام أو حتى إذا أُصيب بمكروه كأن يقع على الأرض، ليفهم أننا يجب أن نشكر الله فهو الذي رزقنا، وأن نشكره على أي حال.. ولكن ماذا لو سألك طفلك أين الله؟

أين الله؟

إذا سألك طفلك أين الله؟ ببساطة نجيب عليه بأن الله موجود في السماء، ونشرح له أنه عندما ندعو ربنا ونحن في الصلاة مثلاً، نرفع أيدينا إلى السماء.. فالله هو العظيم، لأنه خلق لنا الأنهار والبحار والطيور والحيوانات، وخلق لنا السماء والشمس والقمر، لهذا لا بد أن يكون في مكان مميز ومرتفع، فهو في السماء.. والله ﷻ يراقب تصرفاتنا وكل أعمالنا ويراها، ولا نستطيع أن نختبئ منه أبدًا.

لماذا لا نرى الله؟

قد يتطور تفكير وأسئلة الطفل ليسألك: لماذا لا نرى الله؟ للرد على هذا السؤال هناك عدة إجابات عملية فيها بعض من المرح والتجربة التي تسهل على طفلك فهم هذا الموضوع منها:

١- قصة سيدنا موسى ورؤية الله: من الممكن أن نحكي للطفل قصة حديث سيدنا موسى مع الله تعالى، وذلك بنوع من التبسيط وليس التشبيه، فنقول له مثلاً: هل تستطيع أن تنظر إلى الشمس بدون نظارة شمسية؟ سيجيب لا.. هكذا نور الله أقوى وأكثر سطوعًا، فإذا كان نور الشمس بهذه القوة، فما بالك بنور الله الذي خلق لنا الشمس؟!

والدليل على أننا لن نستطيع رؤية الله تعالى، هو أنه لما أراد سيدنا موسى رؤية الله، وأمره بالنظر إلى الجبل، ولما نظر سيدنا موسى للجبل، وجده قد انهار على الأرض (خرّ).. فالجبل لم يتحمل نور الله، لهذا

hiragate.com

إذا أردنا أن ندخل الجنة ونرى الله ﷻ، علينا الإكثار من الأعمال الصالحة ليرضى الله عنا.

٢- تجربة سطح العمارة: من الممكن أن نعمل هذه التجربة البسيطة مع أطفالنا، لنرد على سؤالهم كيف يرانا الله ونحن لا نراه.

إن الله أعلى منّا بكثير، فهو في السماء، لذلك فهو يرانا كلنا في وقت واحد. ومن المفيد اصطحاب الطفل إلى سطح العمارة التي يسكن فيها، ثم نسأله هل ترى الناس جميعا؟ سيقول نعم.. هذا يعني أنك تراهم جميعًا في وقت واحد؟ سيجيب نعم.. فلله المثل الأعلى، فالله تعالى يرى كل الناس وهو في السماء ويراقب تصرفاتهم، وهم لا يرونه.

٣- تجربة الهواء: إن إجراء هذه التجربة البسيطة، تجعل طفلك يفهم أنه ليس من الضروري أن يرى الله ليصدق بوجوده. لنبدأ بالتجربة:

الأم: هل تشعر بالهواء؟

الطفل: نعم أشعر به.

الأم: هل ترى الهواء؟

الطفل: لا.

الأم: هل تستطيع الإمساك بالهواء؟

الطفال: لا.

الأم: إذن أنت صدَّقت بوجود الهواء على الرغم من أنك لم تره ولم تتمكن من الإمساك به.

وكذلك قد تتأكد من أن شخصًا ما، قد نشر العطر في مكان قريب منك لمجرد أنك شممت رائحة جميلة رغم عدم رؤيتك لهذا الشخص. ولله المثل الأعلى.. فلا بد أن نتأكد من وجود الله على الرغم من كوننا لا نستطيع رؤيته.

كما يمكن أن نسأل الطفل: هل من الممكن أن ترى النوم؟ مؤكد لا.. فالنوم يدخل أعيننا ولا نراه، وكذلك الأفكار تكون داخل أدمغتنا ولا نستطيع أن نمسكها ولا نراها.. هذا يعني أنه ليس من الضروري أن ترى بعض الأشياء حتى تصدق بوجودها. فآثار نعم الله حولنا دليل على وجوده.

٤- تجربة الضرب: استكمالاً للرد على أطفالنا بشكل عملي ومبسط على سؤالهم لماذا لا نرى الله؟ من الممكن أن نجري أيضًا هذه التجربة:

اطلبي من طفلك أن يمد يده، ثم اضربيه على يده واسأليه بماذا تشعر؟

سيجاوب بالألم.. بعدها اطلبي منه أن يمسك بالألم حتى تتأكدي أنه يتألم، قد يشير لموضع الألم، وقتها من الممكن أن تفهميه أنك تريدين الألم نفسه وليس مكانه، سيقول أنه لا يستطيع الإمساك بالوجع أو الألم، هنا نتوصل معه أنه شعر بالألم وأحس بوجوده رغم أنه لم يستطع مسكه أو رؤيته، فقط رأى آثار الضرب وتأكد بوجوده، ولله المثل الأعلى.. فنحن نرى آثار خلق الله ونعمه دون أن نراه ﷻ، فآثار نعمه دليل على أن للكون خالقًا عظيمًا صفاته ليست مثلنا نحن البشر، فلا يمكن رؤيته.

٥- تجربة الظلام: في هذه التجربة نحتاج أن نقف مع الطفل في أي مكان مظلم، ثم نسأله هل ترى شيئًا؟

سيجيب: لا.

الأم: على الرغم من أن وظيفة العين هي الرؤية، إلا أنها أحيانًا لا تتمكن من رؤية كل الأشياء، هكذا أعيننا تعجز عن رؤية الذات الإلهية، لكنها تستطيع أن ترى مخلوقات الله من جبال وبحار وحيوانات وغيرها.

من هنا نستخلص أن للكون ربًّا وخالقًا، يقدر على فعل كل شيء، فهو خالق وليس مخلوق، فصفاته مختلفة عن صفات البشر، وهو سبحانه متعال ولا يفنى.

ومن الضروري جدًّا عند سؤال الطفل من خلق الله، أن نلفت انتباهه إلى عدم التركيز في شكل الذات الإلهية، بل يجب التركيز على مخلوقات الله التي من حولنا في كل مكان و التي تثبت مدى عظمته.

ويبقي التأكيد على أهمية استيعاب أسئلة الطفل مهما كانت، وليس عيبًا على الوالدين أو أحدهما أن يُفهمان الطفل أنهما سيبحثان عن الإجابة، ومن ثم يمكن أن نمهله إلى وقت آخر للإجابة على سؤاله، ويجب الحرص على إجابته ولو بعد حين؛ حفاظًا على توازنه النفسي وتنمية لثقته بنفسه. ■

(*) كاتبة وباحثة مهتمة بشؤون الطفل / مصر.

hiragate.com

صالح القاضي*

الوحدة مرض اجتماعي خطير

على الرغم من التطور الذي أحرزته البشرية في العديد من المجالات الطبية والتكنولوجية، إلا أنها اليوم تقف أمام أمراض جديدة ظهرت مع هذا التطور. ولكن هل نحن على وعي بهذه الأمراض؟ إن أخطر الأمراض التي قد يعاني منها الإنسان هي الأمراض النفسية، وغالبًا ما يُخفي المريض الألم الكامن داخله فتتدهور حالته ليجد نفسه مصابًا بمرض جسدي خطير.. فكل مرض جسدي يحوي في طياته مرضًا نفسيًّا.

ولا شك أننا اليوم نعيش أزهى عصور التواصل الاجتماعي التكنولوجي، فخلال العقدين الأخيرين تطورت تقنية المواصلات والاتصالات بصورة يشهدها تاريخ الإنسانية لأول مرة. والمجتمعات الإنسانية اليوم، تُطور مجالات العلوم المختلفة بوتيرة متسارعة؛ فالتراكم المعرفي الموجود يسهم في تحقيق قفزات علمية جديدة، ولكن من ناحية أخرى تخرج

الدراسات السنوية لتؤكد أن نسبة البشر الذين يشعرون بالوحدة آخذة في الازدياد وبصورة طردية مع التقدم التكنولوجي، فعلى سبيل المثال، خرجت دراسة أعدَّتها إحدى المراكز العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية على ٢٠,٠٠٠ مواطن أمريكي، لتكتشف أن ٥٤٪ منهم يشعرون بأنهم غير مفهومين، وأن ٥٦٪ منهم يشعرون بالانعزال عن محيطهم.

وفي دراسة أخرى نشرتها مجلة جامعة هارفارد، يتساءل العلماء هل من الممكن أن يكون مرض الوحدة والشعور بالانعزال معديًا أم لا؟ وأوضحت الدراسة أن مستخدمي موقع التواصل الاجتماعي "تويتر" يشعرون بالوحدة أكثر من مستخدمي برنامج "الأنستجرام"، لتخلص الدراسة إلى أننا أمام نوع جديد من الأمراض النفسية، ذات التأثيرات الضارة على الشخص والمجتمع على حد سواء. لم يتم إدراج الوحدة كمرض في العديد من دول العالم،والأطباء المتخصصون في الدول التي تولي أهمية لهذا الموضوع مثل الولايات المتحدة الأمريكية، والمملكة المتحدة، لم يجدوا علاجًا لهذا المرض، ناصحين بأن الحل الأمثل هو السعي لإيجاد صديق حقيقي في عالم الواقع.

وأفادت الدراسة أن في المملكة المتحدة قرابة ٩ ملايين من البالغين يشعرون بالوحدة، كما وصلت نسبة الشعور بالوحدة عند الأطفال إلى ٢٤٪، وإلى ٤٣٪ عند من تتراوح أعمارهم ١٧-٢٥.

مخاطر مرض الوحدة

قد تتساءل عزيزي القارئ: ما لنا ولأناس يرتاحون إلى هذا النوع من الوحدة؟ تؤكد الدراسات أن هؤلاء ليسوا مرتاحين لحالتهم في حقيقة الأمر؛ لأنهم يشعرون بانعزال تام عن المحيط الذي يعيشون فيه، وهو ما يساوي تدخين ١٥ سيجارة يوميًا. وبحسب الدراسات الأخيرة فإن أضرار مرض الوحدة هذا، أكثر خطرًا من مرض السمنة المفرطة، بل إن تشخيص مرض السمنة المفرطة أسهل من مرض الوحدة بكثير لعدم إمكانية قياس المشاعر بآلة أو أداة.

إننا نتعامل مع مرض لا زال العلماء يجرون حوله الأبحاث لفهمه بصورة صحيحة، فمرض الشعور بالوحدة يختلف عن العزلة الاجتماعية؛ حيث يقتصر الشخص في تعاملاته على عدد قليل من الأصدقاء، وكذلك يختلف مرض الشعور بالوحدة عن الدخول في العزلة المؤقتة التي تكون باختيار الشخص. أما الشعور بالوحدة كما يعرِّفه المتخصصون، فهو عدم شعور المرء بوجود أحد يتواصل معه. كما أن الأفراد الذين يعيشون بمفردهم زادت نسبتهم، وذلك وفقًا لدراسة أجريت حول عدد من يعيشون بمفردهم، تبين أنها وصلت إلى ٦٠٪ بينما كانت تلك النسبة ١٠٪ فقط عام ١٩٦٠م.

إن مخاطر الشعور بالوحدة عديدة، منها الشعور بالإحباط، والانتحار، والتعرض للأزمات القلبية، وزيادة التوتر والقلق المستمر، وضعف الذاكرة والقدرة على التعلم والتي قد تتحول إلى مرض الزهايمر، والإقبال على السجائر والمخدرات.. والخطير في الأمر أن إحدى الدراسات الحديثة أشارت إلى انتشار هذا المرض المعدي بين البشر بكثرة.

كيف نتخلص من الشعور بالوحدة؟

إن كنت تشعر بالوحدة، فإليك بعض النصائح التي قد تخلّصك من هذه الأجواء:

أولاً: اِعلم أن الشعور بالوحدة عبارة عن إحساس وليس حقيقة؛ فإذا سأل الشخص نفسه لماذا أشعر بالوحدة؟ أجابه عقله بأن لا أحد يحبه، أو لأنه فاشل، وهكذا.. ولكن عليك أيها المتسائل أن تنتبه لمشاعرك، وتواجهها بصورة سليمة من غير تضخيم للأمور.

ثانيًا: اهتمّ بحوائج الآخرين ومشاعرهم، وابتعد عن وضع نفسك في مركز كل شيء، كن ممتنًّا لهؤلاء البشر الذين تشاركهم الطريق، تمنى لهم الخير والمحبة، ابتسم في وجه من تلقاه، وحاول أن تكون لطيفًا مع الآخر.

ثالثًا: ابحث عن آخرين يشاركونك معاناتك، فالتكنولوجيا قدمت لك فرصًا كبيرة للتعارف على أشخاص مرّوا بتجربتك.. تعرّف عليهم، شاركهم بما تشعر به.. افتح قلبك لهم.. فأفضل طريقة للخروج من نفق الوحدة المظلم هو تكوين صداقات قوية. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiragate.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
نور الدين صواش

الإخراج الفني
نور الدين محمد
محمد أشرف

منسق الاشتراكات
محمد علي
+201094338182
+201102122946

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-70

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201094338182 - +201102122946
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton, NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

اشتراك وتوزيع | hiragate@yahoo.com
Mobile: +2 01102122946 +2 01094338182

- بيان القلب الساحر بلا حروف أو كلمات..
- صوت الصمت المدوي في عصر الصخب والضجيج.
- كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن..

جديد

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com | 00201023201002
@daralinbiath | @daralinbiath

ولو كانتْ وحيدة

فسيلتُنا برؤيتِها انْتشَينا
بكل الحب غاليةٌ علينا
رعيناها بنبض القلبِ دومًا
رَوَيناها المكارمَ من يَدَينا
أجلْ، عَصَفَ الخريفُ بها
ودَوَّى صداهُ وقد تألَّمنا بَكَينا
ولكنَّا اصطبرْنا ما رَجَعْنا
نُوفِّي بالصمودِ اليومَ دَيْنَا

***

ISSN 2357-0229
70
www.hiragate.com